دراسات
فى
منهج الدعوة إلى الله تعالى

للدكتور
محمد سعد على شعيب
استاذ الدعوة والثقافة الإسلامية . م
بكلية اصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، أنزل القرآن تبياناً لكل شيء ، وجعله لنا شرعة ومنهاجاً .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي تجسّد الوحي الإلهي في سيرته وسنته فكانت حياته(ﷺ)هي المنهج الأمثل لكل عباد الله ، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . فصلِ اللهم عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً ، كما صليت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد . وارض اللهم عن أصحابه الغر الميامين . الذين آمنو به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذين أنزل معه أُولئك هم المفلحون ، وعن الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن حمل الدعوة الإسلامية وحسن تبليغها ، وامتلاك الحجة والبرهان لإقناع الآخرين بها ، والتحلي بالحكمة والإخلاص في عرضها من أهم الواجبات التي تلقى على عاتق الدعاة إلى الله تعالى .

وهذا لا يتحقق إلا من خلال منهج واضح يحقق للأمة عناصر التمكين والنهوض ، ويتجاوز الواقع ويدفع المسلم إلى تحقيق مهمة الإستخلاف الإنساني والبناء الحضاري ، ويعمل على نشر الدعوة لإلحاق الرحمة بالناس أجمعين خاصة بعد أن سادت مناهج التضليل والإضلال معظم مناحي الحياة .

والمنهج الذى وضعه الله لعباده وأنزله فى كتابه ، وجسّده رسول الله (ﷺ) فى حياته هو من أفضل المناهج وأحكم المناهج وأبين المناهج على الإطلاق ، منهج يضم فى أطواره جميع ما يحتاج إليه الناس فى دنياهم وآخراهم ليبصروا الغاية من محياهم ، وليستكشفوا معالم الطريق .

قال سبحانه : " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عَنْ سَبِيله ذَلِكُم وَصاكم به لعلكم تتقون "[1]

فالإسلام هو المنهج ، وهو الصراط ، وهو السبيل ، وهو الحجة الساطعة البينة .

وهذه دراسة ((فى منهج الدعوة إلى الله تعالى)) أردت من خلالها أن أبصر نفسى وطلابى – لنصل معاً – إلى أفضل السبل فى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، من خلال اكتساب البصيرة اللازمة فى حركة الدعوة والتى أشارت إليها الآية الكريمة : " قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بَصِيرةٍ أنا وَمَنْ اتَّبعَنى وَسُبْحَانَ الله وَمَا أنا مِنْ المشركين "[2]

ففى هذه الآية إشارة واضحة إلى أن البصيرة فى الدعوة لهذا الدين كالإيمان سواء بسواء ، وأن على أتباع رسول الله (ﷺ) أن يلتمسوا تلك البصيرة ليرسموا على هداها خطواتهم .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٥٣ .
(٢) سورة يوسف الآية : ١٠٨ .

خاصة فى هذا الوقت الذى اشتدت فيه الفتن ، وكثر فيه الغثاء ، وشاع مناخ التضليل الاستشراقى والعلمانى فى معظم مناحى الحياة .

فالمنظمات الاستشراقية والعلمانية تعمل من خلال مؤلفاتها وقنواتها الإعلامية على تقطيع وتجزئ المنهج الدعوى ، وتنادى بضرورة الاقتصار على النص القرآنى فى التقويم والمنهجية ، والعدول عن السنة والسيرة فى البيان والتطبيق بحجة ظنية السنة ، أو ضعف المرويات ، أو أنها اجتهاد بشرى محكوم بظروف الزمان والمكان أو غير ذلك من الترهات .

ونسى هؤلاء وأولئك أن هذا الإدعاء ساقط ، قرآنياً ومنهجياً ، وواقعياً ، فالسنة حُميتْ بالضوابط القرآنية والتجسيد العملى ، والحفظ المنهجى ، والعصمة العامة للنبوة ، وعصمة عموم الأمة ، فى عدم التواطؤ على الخطأ وصدق الله العظيم إذ يقول : " *وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا* "[1] " *مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ* "[2] ويقول سبحانه : " *وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ* "[3].

ولهذا حاولت جهدى أن تكون هذه الدراسة من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والسيرة المعتمدة وأقوال علماء الأمة . متبعاً فى ذلك المنهج العلمى القائم على ذكر النصوص والأقوال من مصادرها مع التحليل والاستنتاج ناسباً كل قول إلى قائله .

---

(١) سورة الحشر الآية : ٧ .
(٢) سورة النساء الآية : ٨٠ .
(٣) سورة النحل الآية : ٤٤ .

فإن كنت قد أصبت فمن الله وحده التوفيق وإن كان فيما ذكرت من خلل أو تقصير ، فحسبي أني بشر أخطيء وأصيب .

أما الخطة التي سار عليها البحث فقد قسمتها إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة .

والله وحده أسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. محمد سعد على شعيب

المدخـــــل

ويشتمل على :

أولاً : تعريف المنهج في اللغة والاصطلاح

ثانياً : المنهج والتخطيط .

ثالثاً : علاقة التخطيط بمنهج الدعوة إلى

الله ـ تعالى ـ

رابعاً : تعريف مناهج الدعوة وأنواعهـا .

تعريف المنهج

أولاً : في اللغة :

الــناظر فــي المعاجم اللغوية يجد أن مادة " نهج " تدور حول عدة مفاهيم من بينها الوضوح والاستبانة والخطة المرسومة والطريق المستقيم ففــي مختار الصحاح : " ن . هـــ . ج " النهج بوزن الفَلْس والمنهج بوزن المذهب والمنهاج الطريق الواضح ، ونهج الطريق أبانه وأوضحه ، ونهجه أيضاً سلكه [١] .

وفــي أســاس الــبلاغة جاء نهج ، أخذ النهج والمنهج والمنهاج ، وطــريق الــنهج ، وطــرق نهجه ، ونهجت الطريق : بينته ، وانتهجته: استبنته ، ونهج الطريق وأنهج : وَضُح . قال يزيد بن حذاق الشني :

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت
منه المسالك والهدى يعدى [٢]

وجــاء فــي المعجم الوجيز:نهج الطريق نهجاً : وضح واستبان .. ويقــال : نهج الطريق بينه وسلكه . ويقال : نَهَج نَهْج فلان سلك مسلكه .. واســتنهج سبيل فلان سلك مسلكه . والمنهاج : الطريق الواضح . والخطة المرســومة ومــنه مــنهاج الدراســة ، ومنهاج التعليم.ونحوهما والجمع مناهج [٣] .

---

(١) مختار الصحاح ، للإمام محمد بن أبي بكر ، ط : دار التراث العربي ، ص ٦٨١ .

(٢) أســاس الـبلاغة للعلامة : جار الله الزمخشري ، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ص٤٨٤ .

(٣) المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط وزارة التربية والتعليم ص ٦٣٦ .

والـــناظر لهـــذا المعنى اللغوي لمادة نهج يجد أنها تدور حول عدة معـــان كلهـــا تخدم غرضاً واحداً هو الاستقامة والوضوح والبيان والخطة المرســـومة ، وهذا لا يتأتى إلا بالتدقيق والتحقيق والتقعيد والضبط وإحكام التخطيط .

في الاصطلاح :

عـــرف المنهج عند العلماء بتعريفات كثيرة ومتعددة كلها تنبثق من المعنى اللغوي وتتفق مع دلالالته من ذلك ما يلي :

١ – الـــنظام والخطـــة المرسومة للشيء أو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين .

٢ – وعـــرف المـــنهج أيضاً بأنه الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقـــيقة فـــي العلوم بواسطة مجموعة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة [١] .

٣ – وعـــرفه البعض بقولهم : " إن المنهج يعني أسلوباً في التفكير وخطوات عملية منظمة تهدف إلى حل مشكلة أو معالجة أمر من الأمور ، وهو برنامج عملي في البحث العلمي ، وفي نقل النظر إلى التطبيق ، وفي التخطيط للمستقبل وفق نظرة بصيرة [٢] .

وبالنظر في هذه التعريفات يتضح لنا أن المنهج يعمل على ترشيد

---

(١) مناهج البحث والتفكير العلمي ، د . محمد عبد الله الشرقاوي ، ص ٩ .

(٢) راجـــع : قضايا العلوم الإنسانية : إشكالية المنهج . تأليف مجموعة من العلماء ص٧ ومنهج الدعوة ، د . عبد المنعم أبو شعيشع ، ص ٥ .

الخطـوات وتنظيم الفكر واستبصار الواقع واستشراف المستقبل .. كما أنه يحتاج إلى الفهم الدقيق ، وإطالة النظر في القضية المعروضة والتغلغل في مراميها ومقاصدها وصولاً إلى الغاية المرجوة .

ورود كلمة منهاج في القرآن الكريم ومعناها :

المتأمل في القرآن الكريم يجد أن مادة (نهج) لم ترد إلا مرة واحدة ولكن ورد معناها في أماكن كثيرة ومتعددة قال تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [١] أي طـريقاً واضـحاً بيناً مستقيماً إن سلكه السالك اهتدى به إلى صراط الله المستقيم .

قـال أبو فرج في معنى سار على منهاجه أي : " إن سلك سبيله ، وركـب طـريقه ، وذهب مذهبه ، وتحرى طريقته ، وقام على سكيكته ، وشـكيكته ودام على شنشنته ، وأخذ في أساليبه وقفا آثاره .. وقصد قصده وصـمد صمده ، وسمت سمته ، ونحا نحوه " [٢] نجا في الدنيا والآخرة وكان من الفالحين .

ثانياً : المنهج والتخطيط :

الأمـة الإسـلامية هي خير أمة أخرجت للناس ، وهي الأمة التي أهلهـا الله لأن تعـيد للعالم رشده وللدنيا صوابها ، و لا يمكن أن يتم ذلك دون تخطيط سليم يجعلها تسير وفق خط واضح المعالم محدد الأهـداف

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٤٨ .

(٢) انظر : جواهر الألفاظ لأبي فرج قدامة بن جعفر البغدادي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ص ١٤ – ١٥ .

معلوم الوسائل .

والإسلام قد سبق الدنيا كلها في وضع المنهج المحدد البارز في معالمه ، وقد سبق – أيضاً – إلى التخطيط لتحديد الأهداف ومعرفة الاتجاه أو المسار ، والتخطيط الذي وضعه الإسلام وسار عليه رسول الله (ﷺ) في نشر الدعوة الإسلامية من أهم الأمور التي يجب أن يلم بها الدعاة إلى الله – تعالى– ولهذا يحسن أن نتحدث عن معنى التخطيط في اللغة والاصطلاح وعلاقته بمنهج الدعوة .

التخطيط في اللغة : التخطيط : مصدر خطّط يخطط ، أي وضع خُطة ، والخطة : الأمر أو الحالة ، وفي المثال يقال : " فلان جاء وفي رأسه خطة " أي أمر قد عزم عليه ، وفي الحديث قول عروة بن مسعود : إن هذا قد عرض عليكم خطة رُشد اقبلوها ودعوني آته [١] أي أمراً واضحاً في الهدي والاستقامة [٢] .

معنى التخطيط في الاصطلاح : للتخطيط عدة تعريفات تحدث عنها العلماء نختار منها الآتي :

١ – عرفه الدكتور عبد الفتاح دياب بقوله : " يقصد بالتخطيط العملية المنظمة التي يتم بها اختيار أحسن الحلول والوسائل للوصول إلى أهداف معينة ، والتخطيط في جوهره موازنة بين القدرات والإمكانات المتاحة على اختلاف أنواعها ، وما يراد أن تحقق من أهداف وتطلعات

---

(١) صحيح البخاري (٥ / ٣٣٠) حديث رقم : ٢٧٣١ .

(٢) المعجم الوسيط مادة خطط (١ / ٢٤٣) .

وآمال . وقيل هو التفكير العميق المتزن ، والدراسة المستوعبة ، لكل عمل يريد الإنسان أن يقدم عليه على بصيرة وبينة ، وإدراك لأبعاده .

٢ – عــرفه " هنري فابول " العالم الأمريكي فقال : " التخطيط في الواقــع يشــمل التنــبؤ بمـــا سيكون عليه في المستقبل مع الاستعداد لهذا المستقبل "(١)،وهو التنبؤ الجزئي الذي يقوم على مقدمات وحسابات ، وهو لا يتصادم مع علم الغيب المطلق الذي تفرد الله به – سبحانه وتعالى– .

٣ – وعــرفه " جــون تــيري " بقولــه : " التخطيط هو الاختيار المرتــبط بالحقـــائق ، ووضع واستخدام الفروض المتعلقة بالمستقبل عند تصـــور وتكويــن الأنشطة المقترحة التي يعتقد بضرورتها لتحقيق النتائج المنشودة " (٢) .

٤ – ومعــنى التخطيط في الإسلام يعني الاستخدام الأمثل للموارد والإمكانـــات والظروف في تنمية الفرد المسلم في كل جوانبه ، مما يجعله قـــادراً على أداء دوره في عمارة الأرض ، وتحقيق هدف وجوده ، وهو عبادة الله تعالى ، وفي تنمية الجماعة المسلمة بقطاعاتها المختلفة ، ليؤهلها بمجموعها أن تكون محققة غاية وجودها وهدف مسيرتها ، في إقامة حكم الله في الأرض ، وتحكيم شريعته في دنيا الناس (٣) .

فمفهوم التخطيط الإسلامي ينبثق من النظرة الإسلامية لدور الإنسان

---

(١) كتاب الإدارة العامة ص ٢٣٤ ، د / عبد الفتاح دياب ، جامعة القاهرة .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٤ .

فـــي حركة المجتمع ، فنشاط الفرد لا يتحقق بشموليته التي أرادها الله لـــه إلا في تحقيق معنى العبادة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [١] ولا يــتحقق معــنى العــبادة إلا من خلال دور الجماعة المسلمة في إصلاح الحياة وعمــارة الأرض ، ولذلك يمكن أن نصوغ تعريف التخطيط الإسلامي بأنه : " تكليف المجتمع بحكم القرآن " فقد دعا الإسلام إلى الأخذ به ، وجعله نظاماً لحياة المسلم ، لأنه لا غنى عنه ، ولقد جاء الحث عليه أمراً صريحاً في القرآن ، قال الله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [٢] . وفي الأثر : " إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة – نبتة النخلة – فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر " [٣]. فــيفهم من هذا الحديث أن التخطيط للعمل واجب في أشق الظروف بغض الــنظر عما إذا كان صاحب العمل سيجني فائدة هذا العمل أم لا ، فالمسلم الحق هو الذي ينجز العمل الذي استعد له من بدايته إلى نهايته طالما وسعه ذلك ، إنه مأمور بغرس النخلة التي جهزها ، واختار الأرض المناسبة لها

التخطيط للدعوة :

التخطيط للدعوة يراد به وضع الخطط والنظم لها ، ويقابله الفوضى والارتجالية فيها ، ولأهمية التخطيط في الدعوة جعل الله لكل أمة شريعة

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٦٠ .

(٣) ذكره علي بن عبد العزيز في المنتخب بإسناد حسن عن أنس ﷺ" عمدة القاري في شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ، باب الحرث والزراعة . والحديث أخرجه الإمام أحمد من رواية أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ " إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل " ، ك باقي مسند المكثرين ب: باقي المسند السابق برقم ١٢٥١٢

ومنهاجاً تسير عليه [١] .

وإذا كان معنى المنهاج هو الطريق الواضح والخطة والنظام ، فقد وضح رسول الله (ﷺ) التخطيط في سيرته ، حيث سار في دعوته إلى الله -سبحانه- على خطة محكمة ، سواء في العهد المكي أو في العهد المدني ، فقد وضع لكل عهد خطته المناسبة له مراعياً في ذلك حال الدعوة والمدعوين من حوله ، وموازناً بين الإمكانات والواقع والواجبات ، ناظراً إلى المصالح القريبة والبعيدة للدعوة .

وقد نفذ كل خطة خطوة خطوة ، بعيداً عن الاستعجال متجرداً عن الرغبات والعواطف ، متجاوزاً الضغوط من حوله ومتخطياً لها حتى مكنه الله من الوصول بدعوته إلى أهدافها ، فأقام حكم الله في الأرض ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأفشل خطط أعدائه وأبطل مكرهم [٢] .

كما وجه أصحابه لمتابعة الخطة والتزام طريقته وسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ولهذا قال (ﷺ) : " تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنة نبيه " [٣] .

وعن العرباض بن سارية عن النبي (ﷺ) أنه قال : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ " [٤] .

---

(١) المدخل إلى علم الدعوة ، دراسة منهجية شاملة ، لتاريخ الدعوة وأصولها ومناهجها وأساليبها ومشكلاتها في ضوء النقل والعقل ، د . محمد أبو الفتح البيانوني ، ص ٣٠٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٧ .

(٣) رواه مالك في الموطأ رقم (١٣٩٥) ك الجامع باب النهي عن القول بالقدر.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٩٩١) ك السنة باب : في لزوم السنة ، والدارمي في المقدمة حديث رقم (٩٥) .

ثالثاً : علاقة التخطيط بمنهج الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ :

مما لا ريب فيه أنه توجد علاقة مشتركة بين التخطيط ومنهج الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- ، لأن أي عمل مهما كان صغيراً ، متواضعاً لا يمكن أن يكتب له النجاح ما لم يكن منظماً ، وكثير من الطاقات قد تهدر وتضيع في غياب التنظيم ، ومن ثم كانت الرابطة بين التخطيط ومنهج الدعوة رابطة عضوية لا تنفصل ؛ لأن التخطيط يقوم على التفكير ، والتفكير هو الذي يحدد المنهج ، ومن هنا كان التخطيط ركيزة أساسية يقوم عليها منهج الدعوة إلى الله ، فإذا كان المنهج الدعوي من أهدافه إنقاذ الأمة الإسلامية من التمزق والضياع ، فإن التخطيط الدقيق والتفكير المنظم والتقدير الصحيح وإعداد الوسائل المناسبة للوصول إلى الغاية هو سر الإنقاذ ، ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار الأمة إلى أهمية التخطيط المحكم الذي أنقذ الأمة المصرية في عصر سيدنا يوسف ﷺ من المجاعة والهلاك[١] .

كما أن التخطيط المحكم – أيضاً – حوّل أمة كانت لا تفقه قولاً ولا عملاً إلى أمة عاملة متقدمة متحضرة تقوم بأعظم الأعمال وأضخم الموانع السدودية فتبني سداً هو آية من آيات الله .

كما حفظت لنا السيرة النبوية المطهرة أنماطاً متعددة في كل مراحلها من إعداد دقيق لنشر الدعوة الإسلامية ، ومن مراحل دعوية تقدر ظروف الزمان والمكان والمناخ ، ومن براعة في استخدام

---

[١] راجع : الدعاة والتخطيط كتاب الأمة ص ٢٦ بتصرف .

الوسـائل المخـتلفة والأساليب المتنوعة التي تحقق الأهداف وهذه بعض النماذج .

النموذج الأول : التخطيط لنجاة الأمة المصرية من المجاعة :

لفـت الله تعالى أنظار الأمة الإسلامية كلها إلى أهمية التخطيط في حـياة المسلمين ، ففي حكم عزيز مصر استطاعت بالتخطيط السليم الذي يقـوم علـى أسس منطقية أن تحقق ما تصبو إليه الأمة ، وذلك من خلال قصـة سـيدنا يوسف(عليه السلام)، فعندما عم القحط كل مصر ووصل إلى بلاد الشـام وجاءه رسول الملك [١] يقول لـه مستفتياً ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢].

وبعـد أن سمع سيدنا يوسف هذه الرؤيا قام بتفسيرها وأرشدهم إلى خطـة مسـتقبلية لمواجهة الشدائد والمجاعات المتوقعة وهي تتلخص في الآتي :

أ – تحديـد المـدة المطلوبة للخطة (خمس عشرة سنة) وفي هذا إشـارة إلـى أهمـية التخطيط الطويل للمستقبل حيث إن الخطط الخمسية والعشرية في عصرنا هذا لا تكفي للنهوض بالأمة من كبوتها .

ب – ضرورة العمل الزراعي الجاد ، المتاح في هذا الوقت .

ج – ضرورة زيادة الإنتاج .

---

(١) راجع : الدعاة والتخطيط ، كتاب الأمة ، ص ٦٩ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٤٦ .

د – ضــرورة التخزيــن الجيد وفي هذا إشارة إلى أهمية التصنيع والحفظ والتغليف ووجود الصوامع والمخازن المتطورة .

النموذج الثاني: التخطيط لنجاح الهجرة النبوية :

المــتأمل في هجرة الرسول (ﷺ) من مكة إلى المدينة يتضح له أن التخطــيط لها بدأ منذ أن أدرك الرسول (ﷺ) أن مكة لا تصلح لقيام الدولة ولا تصلح لأن تكون مكاناً آمناً ومن ثم كان التخطيط – بوحي من الله عز وجل – بالتوجه إلى المدينة المنورة – يثرب – لأنها منيعة بحصونها ولها سيادة وسلطان بأهلها ، ولها موقع استراتيجي هام لأنها طريق تجارة مكة إلى الشام ، وبدأت مراحل التنفيذ العملي ببيعة العقبة الأولى التي لقي فيها الرسول (ﷺ) ستة نفر كلهم من الخزرج وعرض عليهم الإسلام فاستجابوا له ، ثم بيعة العقبة الثانية التي كان فيها اثنا عشر رجلاً ، وبعد أن أسلموا جمــيعاً أرســل معهــم ابن أم مكتوم ومصعب بن عمير ، ثم بيعة العقبة الثالثة التي كان فيها ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتين ، وبايعهم الرسول (ﷺ) علــى الإســلام وعبادة الله وألا يشركوا به شيئاً ، ثم على حمايته إذا قدم عليهم المدينة [١] .

والناظر إلى هذه البيعات الثلاث يتضح له :

١ – دقة الإحكام في التخطيط .

٢ – دقة اختيار الوقت المناسب لعقد المعاهدات في موسم الحج .

---

(١) خــاتم النبييــن ﷺ للإمام : محمد أبو زهرة ، ط دار إحياء التراث الإسلامي ، قطر ، (١ / ٥٩٤ – ٦٠١) .

٣ – دقة اختيار موعد اللقاء بأن يكون بعد ثلث الليل .

٤ – مراعاة التدرج في تنفيذ الخطة على مراحل حسب مقتضيات الأحوال ، لأن الطفرة قد تؤدي إلى الفشل أو التعثر .

٥ – توصية الرسول للمسلمين بأن يخرجوا من مكة متفرقين .

٦ – أمره للمسلمين (ﷺ) أن يلتزموا الكتمان .

٧ – الحض على التحمل والصبر وترك الأموال والأولاد والاحتساب عند الله تعالى .

٨ – أمره لأبي بكر بالبقاء في مكة .

٩ – أمره لعليّ بالمبيت على فراشه لإيهام المشركين بأنه موجود لم يغادر البيت ، ولكي يرد الودائع إلى أصحابها من أهل مكة بعد خروج الرسول منها .

١٠ – التسلل من نافذة خلفية على حين غفلة من قريش .

١١ – التوجه جنوباً عن طريق اليمن إلى غار ثور .

١٢ – التوقف عن السير والحركة ثلاثة أيام .

١٣ – الانطلاق بعد الأيام الثلاثة صوب المدينة .

١٤ – اختيار طريق شديد الوعورة غير متروك .

١٥ – اختيار الدليل الماهر وهو من المشركين أنفسهم .

وقد اختاره اعتماداً على كفاءته وأمانته ، في وقت لم يكن في الإمكان أن يكون الدليل من المسلمين لأنهم جميعاً مضطهدون ، ولهذا لا يجوز الاستشهاد به في معاونة المشركين للمسلمين في أي أمر من الأمور.

هكـــذا أمـــرنا الله أن نخطط لنشر الدعوة الإسلامية وأن نضع لها الخطـــط العلمـــية المحكمة التي تحصنها من الارتجالية وكثرة الأخطاء ، وتكالـــب الأعداء عليها ، وما رزأت الدعوة بشبه المستشرقين والمنصرين والعلمانييـــن إلا بســـبب غفلـــة علماء الأمة عن وضع الخطط التي تحمي دعوة الله-تعالى-.

رابعاً : تعريف مناهج الدعوة :

مناهج الدعوة في الاصطلاح هي " نظم الدعوة وخططها المرسومة لها " [١] ، أو هي الطريق البين الذي يسلكه الداعية المتمكن من أسباب الفاعليـــة تجاه المدعو على أساس علمي لتحقيق الهدف من العمل الدعوي [٢] .

ومن خلال التعريفين السابقين تتضح لنا الأمور الآتية :

* يجب على الداعية أن يكون عالماً بالطريق المناسب للمدعو .

* علـــى الداعـــية أن يكون على بينة بالطريقة الملائمة التي يخاطب بها المدعو.

* على الداعية أن يكون فاهماً للوقت المناسب الذي يدعو فيه .

* على الداعية أن يراعي حال المدعو وظروفه [٣] .

---

(١) المدخل إلى علم الدعوة . د . محمد أبو الفتح البيانوني ص ٤٦ .
(٢) منهج الدعوة إلى الله تعالى ، د / حسين خطاب ، ص ١٦ .
(٣) منهج الدعوة ، د / عبد المنعم صبحي أبو شعيشع ص ٦٤ .

وهذه الأمور تقتضي أن يكون الداعية إلى الله – سبحانه وتعالى – عالماً بأمرين :

الأول : معرفة مناهج الدعوة ، لاختيار المنهج المناسب لكل مدعو

الثاني : معرفة المدعو ومعرفة تمكنه من مخاطبته وإصلاحه .

أنواع المناهج الدعوية [١] :

نظـراً لكـثرة أنـواع المناهج الدعوية وتعددها يمكن تقسيمها إلى حيثيات عدة :

أولاً : من حيث واضعها أو مصدرها :

تنقسـم المناهج الدعوية من حيث واضعها أو مصدرها إلى قسمين أساسيين هما :

أ – **المناهج الربانية** : وهي المناهج التي وضعها الشارع لهذه الدعوة عن طريق القرآن و السنة ، وهي مناهج معصومة عن الخطأ ، وأصل للمناهج الدعوية كلها ، قال تعالى﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [٢] .

ب – **المناهج البشرية** : وهي المناهج الدعوية التي يضعها الدعاة والعلماء باجـتهادهم فـي أي جانب من جوانب الدعوة ، تطبيقاً للمناهج الربانية ، واعـتماداً علـيها ، وذلـك بما يتناسب مع زمانهم ، ويتلاءم مع ظروف المدعوين من حولهم ، وهي مناهج تحتمل الخطأ والصواب ... وللدعـاة

---

(١) المدخل إلى علم الدعوة ، د / محمد أبو الفتح البيانوني ص ١٩٥ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

أن يأخذوا منها أو يتركوا ما شاءوا اللهم إلا مناهج الخلفاء الراشدين .

ثانياً : من حيث موضوعها :

تتـنوع المناهج الدعوية من حيث موضوعها إلى أنواع عديدة ... وذلك لشمول الدعوة الإسلامية لجميع جوانب الحياة الإنسانية .

فهـناك مـناهج عقديـة ، وعبادية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وعسكرية وسياسية ، وصحية ورياضية .

ثالثاً : من حيث طبيعتها :

تتنوع المناهج الدعوية من حيث طبيعتها إلى مناهج دعوية خاصة وأخـرى عامـة وإلى مناهج فردية وأخرى جماعية ، وإلى مناهج نظرية وأخرى تطبيقية .. وقد جاءت الشريعة الإسلامية بأمثلة كثيرة لهذه المناهج العامة والخاصة وغيرها .

رابعاً : من حيث ركائزها :

تتـنوع المناهج الدعوية بجميع أنواعها السابقة من حيث ركائزها إلى ثلاثة:

المنهج العاطفي وهو الذي يرتكز على القلب .

المنهج العقلي وهو الذي يرتكز على العقل .

المنهج الحسي أو التجريبي وهو الذي يرتكز على الحس [١] .

---

[١] المدخل إلى الدعوة ، د / محمد أبو الفتح البيانوني ص ١٩٨ .

الفصل الأول

كيفية تطبيق مناهج الدعوة

لا يتمكن الداعية إلى الله – تبارك وتعالى– من تطبيق منهج الدعوة إلى الله تعالى وتبليغها للناس إلا إذا كان عالماً بالأساليب والوسائل الدعوية وطـرق تطبـيقها علـى الوجه الأمثل ، ولهذا فسوف نتحدث عن بعض أســاليب الدعوة ووسائلها . ومنهج الدعوة في تربية الشخصية المسلمة من خلال ما يلي :

المبحث الأول

من الأساليب والوسائل الدعوية

أولا : من أساليب الدعوة إلى الله – تعالى – :

تعـريف الأســلوب فــي اللغة : الأساليب : جمع أسلوب ، وهو في اللغة الطريق ، ويقال سلكت أسلوب فلان في كذا أي طريقته ومذهبه . وأسلوب الكاتب طريقته في كتابته [١] . ويقال : أخذ فلان في أساليب في القول : أي أفانين منه [٢]

ومن هذا التعريف اللغوي لكلمة أسلوب ، يمكننا أن نعرف " أسلوب الدعــوة فــي الاصطلاح بأنه : طريقة الداعي في دعوته أو كيفية تطبيق مناهج الدعوة " . ولاشتراك كل من المنهج والأسلوب في المعنى اللغوي ، وهو الطريق يبرز الترابط الوثيق بين المناهج والأساليب من جهة كمـــا

---

(١) انظر : المعجم الوسيط في مادة سلب (١ / ٤٤٣) .

(٢) انظر : لسان العرب (١ / ٤٧٣) .

تبرز الدقة في التفريق بينهما من جهة أخرى .

فالمناهج الدعوية : هي النظم والخطط الدعوية ، والأساليب الدعوية هي : كيفيات وطرق تطبيق تلك النظم والخطط الدعوية . ولنضرب لذلك بعض الأمـــثلة زيادة في التوضيح : إذا كانت العبادة في الإسلام منهجاً ونظاماً ، فـــإن مـــن أساليبها : الصلاة ، والصيام ، والزكاة والحج وما إلى ذلك من أشكال تطبيق العبادة ... [١] .

ومـــن الصعب حصر جميع الأساليب الدعوية وذلك نظراً لتنوعها وكثرتها ولكن سنذكر بعض الأساليب التي نص عليها القرآن الكريم لتكون أمثلة للدعاة إلى الله-تعالى-.

١ - **أســـلوب الحكمة** : وهو من الأساليب المهمة لأن الحكمة هي إصابة الحق بالعلم والعقل [٢] ، أو هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وقد نص القرآن الكريم على أهميتها فقال تعالى:﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [٣] . وقد جعلها الله من أفضل ما يعطيه للمرء فقال سبحانه:﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ ﴾ [٤] . ومن مظاهر الحكمة في المنهج الدعوي ما يلي :

أ – ترتيب الأولويات : وتقديم الأهم على المهم وتقديم الفـــروض

---

[١] راجع : المدخل إلى علم الدعوة ص ٤٧ .

[٢] انظر مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ، ص ١٢٧ .

[٣] سورة النحل الآية : ١٢٥ .

[٤] سورة البقرة ، الآية : ٢٦٩ .

على المندوبات والنوافل ، والمحرمات على المكروهات .

ب – التدرج في تطبيق الأولويات ، ولا سيما في معالجة الأشخاص والأوضاع العامة .

ج – مناسبة المنهج للأحوال والأعمار والمستويات ، فلا يعد المنهج حكيماً إذا ساوى بين حالة الضعف وحالة القوة ، وبين حالة السلم و الحرب ، أو لم يفرق بين الكبير والصغير ، والمرأة والرجل [١] .

٢ – أسلوب الموعظة الحسنة :

الموعظة الحسنة هي تذكير المدعو بالعواقب وأمره بالطاعة بالقول الصريح اللطيف اللين قال تعالى:﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [٢] ، وقال ﷻ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [٣] .

وقد استخدمه رسول الله (ﷺ) في دعوته إلى الله-تعالى-من ذلك حادثة الأعرابي الذي بال في المسجد [٤] . وموقفه من الأنصار يوم حنين عند تقسيم الغنائم وتذكيرهم بنعمة الله عليهم [٥] .

٣ – أسلوب الجدل :

أسلوب الجدل من أفضل الأساليب وأنجحها في معالجة الأمور

---

(١) المدخل إلى علم الدعوة ، ص ٢٤٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٨٣ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .

(٤) الحديث متفق عليه . انظر صحيح البخاري مع الفتح حديث رقم ٢٢١ ، ٦١٢٨ .

(٥) المصدر السابق ، حديث رقم : ٣٧٧٩ ، ٤٣٣٠ .

الاعتقادية ومخاطبة أهل الكتاب وذلك لمصارعة الباطل بالحجة والبرهان كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (١) وقد أشار القرآن الكريم إلى أهميته فقال تعالى: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ (٣) وقد استعمله علماء السلف ولهذا عُني به العلماء عناية شديدة ووضعوا له القواعد التنظيمية وأسموها علم الجدل أو علم أدب البحث والمناظرة (٤).

ومن خصائص الجدل في القرآن الكريم ما يلي :

١ – أنه يستهدف الحقائق في ذاتها ويقيم عليها البراهين والحجج.

٢ – أنه يسلك سياسة جدلية واضحة يعالج بها أوضاع الخصوم وتتناسب مع أحوالهم وطبائعهم النفسية كما حدث في مناظرة إبراهيم(عليه السلام) لقومه وإبطال ما هم عليه من عبادة الكواكب .

٣ – لم يتبع القرآن في جدله طريقة المنطق اليوناني المعقدة في ترتيب المقدمات والنتائج بأشكال منطقية مطولة وإنما جاء القرآن بلسان عربي مبين بعيد عن التعقيدات المنطقية معتمداً على تنويع الأسلوب وتلوين الخطاب ، مازجاً بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد تسكيناً

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٨ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٦ .

(٤) تاريخ الجدل للإمام محمد أبو زهرة ، ص ٦ .

لنفوس المؤمنين ليطمئنوا وإزعاجاً للملاحدة المعاندين ليثوبوا إلى عقولهم

٤ – وقـد اعـتمد القرآن على العلم والمعرفة وذم من يجادل بغير علـم فقال تعالى لأهل الكتاب : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) .

٥ – الأصـل فـي الجـدل القرآني أن يكون بالتي هي أحسن فإذا استخدم في جداله القسوة وتأنيب الخصوم فهذا يرجع إلى أمور ذاتية تتعلق بالخصم المجادل لكونه لم يصغ للحق ولم يستخدم عقله (٢) .

مقاصـــده :

للجدل مقاصد متعددة ، ومن مقاصد الجدل القرآني مع أهل الكتاب ما يلي :

* إثبات وحدانية الله (ﷻ) وإبطال مزاعم أهل الكتاب .

* إثـبات وحـدة الدين : فالأديان كلها من لدن آدم (عليه السلام) إلى نبينا (ﷺ) مـتفقة على أن دين الأنبياء واحد ، وفي ذلك يقول (ﷺ) : " الأنبياء أخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد " (٣).

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٦٥ – ٦٦ .

(٢) راجـع جدل القرآن الكريم لأهل الكتاب دراسة وتحليل ، دكتور / خليفة حسن العسال ص٧٠ ، ٧١ .

(٣) رواه الإمـام الـبخاري فـي كتاب أحاديث الأنبياء ، ب : قول الله " واذكر في الكتاب مريم.." الآية ، رقم (٣١٦٨)، ورواه الإمام مسلم في ك الفضائل، ب : فضائل عيسى عليه السلام رقـم (٤٣٦٢) ورواه الإمـام أبو داود في ك : السنة باب: في التخيير بين الأنبياء عليهم السـلام رقم(٤٠٥٥)، ورواه الإمام أحمد في مسنده كتاب باقي مسند المكثرين ، ب: باقي المسند (٧٩٠٠) ، (٩٥٩٥) ، (٩٥٩٦) ، (٩٨٦٨) ، (١٠٥٥٨) .

* إثبات تحريف الكتب السابقة ، وإبطال حجيتها ، ونسخها بالقرآن الكريم الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

* إبطـال مزاعم أهل الكتاب خاصة اليهود فيما زعموه من أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه [١] .

هذه بعض الأساليب التي من خلالها يستطيع الداعية أن يطبق منهج الدعوة شريطة أن يستعين بالوسائل الدعوية .

ثانياً : من وسائل الدعوة إلى الله تعالى :

تعـريف الوســائل : الوســائل الدعوية هي : " ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية " أو هي ما يتوصل به إلى الشيء أو ما يستعين به الداعية على تبليغ دعوته [٢] .

أنواع الوسائل : الناظر إلى تعريف وسائل الدعوة يستطيع أن يقسمها إلى قسمين أساسيين هما [٣] :

أ – الوســائل المعنوية : وهي جميع ما يعين الداعية على دعوته مـن أمـور قلبـية أو فكرية وذلك كالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة ، والتفكـير ، والتخطـيط ، وما إلى ذلك من أمور لا تحس ولا تلمس وإنما تعرف بآثارها .

ب – الوسائل المادية : وهي جميع ما يعين الداعية من أمـــور

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧ – ٨٨ بحولية كلية الشريعة والقانون قطر ١٩٩٣م .

(٢) المدخل إلى علم الدعوة ، د / محمد أبو الفتح البيانوني ، ص

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

محسوسة أو ملموسة ، وذلك كالقول ، والحركة ، والأدوات ، والأعمال .
ونظراً لكثرة الوسائل المادية فقد قسمها العلماء إلى ثلاثة أنواع أساسية هي

ج – **الوسائل الفطرية** : وهي الوسائل الموجودة في فطرة الإنسان وجبلته وتنمو بنموه كالقول بجميع أشكاله والتي منها الخطبة ، والدرس ، والمحاضرة ، والمناقشة والجدل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والموعظة والدعوة الفردية والنصيحة الأخوية ، والفتوى الشرعية .

ومن أمثال الحركة : التنقل والسفر ، والهجرة ، والزيارات الدعوية وغير ذلك .

د – **الوسـائل الفنية العلمية** : من الوسائل المادية الفنية : الوسائل الـيدوية كالكتابة والبصرية : كالفانوس السحري ، والوسائل المقروءة من صـحف ومجـلات وكتب وغيرها ، والسمعية : كمكبر الصوت والإذاعة والهاتف . والسمعية البصرية : كالسينما والتلفاز.

هـ – **الوسـائل التطبيقـية** : ومـنها إعمار المساجد ، وإقامة الجمعيات الدعوية بجميع أشكالها ، وإنشاء المدارس والجامعات والمشافي والمستوصفات[١]

ووسيلة القول : تعد من أهم الوسائل لأنها فطرية متوفرة لدى جميع الناس وقد اهتم القرآن الكريم بها ، فورد لفظ " قل " في أكثر من ثلاث مائة آية ، كما جاءت مشتقاته وتصريفاته في أكثر من ألفي آية ، ومن ضوابط القول

---

[١] المدخل إلى علم الدعوة ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٠٩ – ٣١٠ ، وانظر : منهج الدعوة للدكتور عبد المنعم صبحي أبو شعيشع ، ص ١١٤ – ١١٥ .

أن يكـــون لطـــيفاً حســـناً ، وأن يطابق العمل ولا يخالفه ، وأن يكون بيناً واضحاً ، وبعيداً عن التشدق وتكلف الفصحى [١] .

ثالثاً : الخصائص العامة للمناهج الدعوية [٢] :

إذا كانت الدعوة تقوم على الأصول والمناهج والأساليب والوسائل فإن خصائص الدعوة الإسلامية تظهر في خصائص كل من هذه الأصول والمناهج والأساليب والوسائل الدعوية ، وأهم هذه الخصائص التي تتجلى في المناهج هي الانضباط والتدرج والاستمرار .

[١] خصيصة الانضباط :

وتعنـــي الالـــتزام بالأحكام الشرعية . فإن الداعية ملتزم بالأحكام الشـــرعية فـــي جميع أموره وتصرفاته ، سواء في وضع مناهجه أو في اختيار أساليبه ووسائله ... لأن المناهج البشرية التي يضعها الدعاة للناس لابد أن تكون منبثقة عن المناهج الربانية التي جاء بها الكتاب والسنة .

[٢] خصيصة التدرج :

الأصـــل في المناهج أن تكون متناسبة مع من وضعت لهم ، وذلك بحسب الأعمار والأحوال والمستويات.. ومن هنا تعددت شرائع الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ومناهجهم ، قال –سبحانه – : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [٣] .

---

[١] المدخل إلى علم الدعوة ، ص ٣١٣ – ٣١٤ .

[٢] المصدر السابق ص ٢٣٥ – ٢٣٨ بتصرف .

[٣] سورة المائدة ، الآية : ٤٨ .

ومن هنا : نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ متدرجاً ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (١) .

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها-: " إنما نزل أول ما نزل منه – أي من القرآن الكريم – سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً " (٢) .

فقد كان منهج القرآن البدء بتفصيل أمور العقيدة وتثبيتها ، ثم ببيان الأحكام الشرعية شيئاً بعد شيء ، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (٣) .

[٣] خصيصة الاستمرار :

الأصل في المناهج الدعوية أن تكون مستمرة لا تنقطع أو تتوقف في مرحلة من مراحل الدعوة ، أو في مستوى من مستويات الدعاة ... لأن الدعوة الإسلامية حركة مستمرة على مستوى التبليغ والتعليم والتطبيق لا تتوقف مادامت هناك حياة للبشر ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ... " .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٣٢ .

(٢) رواه البخاري في باب تأليف القرآن (٩ / ٣٩) حديث رقم : ٤٩٩٣ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٣ .

ولـــم يعـــرف أســـلافنا – رحمهم الله – توقفاً عن العلم والتحصيل والترقـــي في الخير في سن معينة ، كما لم يعرف فيهم من ظن بنفسه أنه استغنى عن الأخذ والتحصيل ، واكتفى بالعطاء ، كما يحدث لبعض الدعاة في زماننا .

رابعاً : أهداف المناهج الدعوية :

لمنهج الدعوة الإسلامية أهداف كثيرة من هذه الأهداف ما يلي :

١ – إحقاق الحق،وإبطال الباطل .

٢ – إنقاذ الناس من الضلال إلى الهدى،ومن الظلام إلى النور .

٣ – بناء الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم .

المبحث الثاني

منهج الدعوة في تربية الشخصية المسلمة

للدعوة إلى الله -تعالى- أركان ثلاثة تحدث عنها علماء الأمة وهي: داع ، ومدعو ، ومدعو إليه . فالداعي هو العالم المتمكن من المنهج الإسلامي ، والذي يدعو إلى الله على بصيرة، مقتدياً برسول الله (ﷺ) الذي أمره الله أن يقول:﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى... ﴾[1]

والمدعو : وهو الإنسان بعمومه لأنه مخاطب بالإسلام ، فالإسلام هو دين الله الخاتم الذي ارتضاه الله لعباده أجمعين .

والمدعو إليه : وهو الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه وسلوكياته .

ولهـذا جـاءت الدعوة بمنهج فريد في تربية الإنسان ، ويقوم هذا المنهج على تربية الروح ، والعقل ، والجسد .

[١] تربية الروح [2] :

الروح طاقة محجوبة عن إدراكنا ، لا يستطيـع الإنسـان أبداً أن

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٠٨ .

(٢) ليس غرضنا هنا بيان الاختلاف أو الاتفاق بين النفس والروح ، وهل هما متغايران ، أو مسماهما واحد ؟ فالنفس تطلق على أمور وكذلك الروح ، فيتحد مدلولهما تارة ويختلف تـارة . فالـنفس تطلق على الروح ، ولكن غالب ما تسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن ، وأمـا إذا أخـذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها . وإنما غرضنا بيان منهج الدعوة في تربية تلك القوى التي في البدن سواء تسمى روحاً أو نفساً ، أو يطلق عليها اسم القلب أو الفؤاد . راجع : شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ، تحقيق أحمد محمد شاكر ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ في بيان التفريق والاتحاد بين النفس والروح .

يــدرك كــنهها ، ولكنها مع ذلك فهي حقيقة لأن نتائجها ليست مجهولة ، ولا محجوبــة عــن الإدراك .. وذلــك لأن الروح هي الطاقة التي تصل الإنســان بالغيــب المحجوب عن الحواس .. فهي وسيلتنا للاتصال بالله ، وهي مهتدية إلى الله بفطرتها ، لأنها من الله أودعها قبضة الطين عند خلقه لآدم فقال –سبحانه وتعالى–: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [١] وهي بذاتها تهتدي إلى خالقها [٢] ، تهتدي إليه كما يهتدي كــل شيء من خلق الله إلى الله قال – تعالى–: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِــمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ [٣] . وقال رسول الله (ﷺ) : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ... " [٤] .

ومــع ذلــك فالإنسان يضل حين تنحرف فطرته ، ويغشاها ركام الشــهوات فيحجــب عنها النور قال تعالى:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [٥] .

وهــنا تبدأ مهمة الدعاة إلى الله-تعالى-في بيان المنهج الإلهي الذي وضعه الإسلام في تربية الروح ، إنه المنهج الذي يعقد الإنسان صلة دائمة

---

[١] سورة الحجر ، الآية : ٢٩ .

[٢] راجع : محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية (١ / ٣٨) بتصرف .

[٣] سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .

[٤] رواه البخاري رقم (١٢٩٦) ك : الجنائز باب : ما قيل في أولاد المشركين .

[٥] سورة الشمس الآية : ٨ ، ١٠ .

بينه وبين الله في كل لحظة ، وكل عمل ، وكل فكرة ، وكل شعور .. حين يصنع الإنسان ذلك فهو لا شك يحقق أرفع ما في كيانه .

المنهج الذي وضعه الإسلام في تربية الروح منهج يقوم على قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [١] وعلى مثل قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [٢] ، وقوله(ﷻ): ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [٣] .

منهج يقوم على واقعية التربية التي تتعامل مع الإنسان بلحمه ودمه وفكـره وشعوره ، وانفعالاته ونزوعاته وروحه وتحليقاتها ، منهج شرحه رسول الله (ﷺ) للصحابي الجليل حنظلة عندما شعر بتبدل حاله فخاف على نفسـه وأسرع إلى رسول الله فأجابه بقوله " والذي نفسي بيده لو تدومون علـى مـا تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة " ثلاث مرات[٤] .

مـنهج يقـوم على حب الله وخشيته ومراقبته من خلال التأمل في آيات الله الكونية والإنسانية وغيرها ، كما قال سبحانه: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْـلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا .

---

(١) سورة التغابن ، الآية : ١٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .

(٤) رواه مسلم ك التوبة باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة رقم(٤٩٣٧) ، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق حديث(٢٣٧٦) ، (٢٤٣٨) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ح (٤٢٢٩) وأحمد ح (١٦٩٤٩) ، (١٨٢٦٨)

مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [١] ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [٢] .

منهج يقوم على توجيه الإنسان إلى قدرة الله القاهرة التي تمسك بيدها كل أمر وتدبر وحدها كل تدبير [٣] ،منهج يربى المسلم على:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [٤] ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ [٥] ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [٦] ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٧] .

منهج يربي الروح على المراقبة لله ، فالإنسان مفروض عليه أن يراقبه وهو يعمل ، ويراقبه وهو يفكر ، ويراقبه وهو يحس . يراقبه وهو يعمل .. فلا يعمل بغير إخلاص ، ولا يعمل شيئاً بقصد الشر ، ولا يعمل شيئاً دون تمعن وتفكر . ويراقبه وهو يفكر ، فلا يفكر في الشر ، ولا يتمناه للناس ؛ وإنما يفكر فيما ينفع الخلق ؛ يفكر في أن يعمل صالحاً . يراقبه وهو يحس فالله يعلم السر وأخفى .. فلينظف مشاعره وأحاسيسه [٨] .

---

[١] سورة عبس ، الآيات : ٢٤ ـ ٣٢ .
[٢] سورة الطارق الآيات : ٥ ـ ١٠ .
[٣] راجع : محمد قطب ، مناهج التربية الإسلامية (١ / ٥٢) .
[٤] سورة الرعد ، الآية : ١١ .
[٥] سورة الكهف ، الآية : ١٧ .
[٦] سورة الأنعام ، الآية : ١٨ .
[٧] سورة التوبة ، الآية : ٥١ .
[٨] راجع : محمد قطب ، مناهج التربية الإسلامية (١ / ٥٨) .

نتائج هذا المنهج :

لهـذا المـنهج نتائج شتى وثمار جنية كثيرة في كل اتجاه ، نتائج تقـرب العبد من ربه وتجعله في تطلع دائم إليه وتجعله في معية الله (ﷻ) على الدوام " لا تحزن إن الله معنا " . ومن ثمار هذا المنهج :

الإحســاس الحــي بالصـلة الوثيقة بين الإنسان والكون ... صلة الـتعاطف والحــب والإعجــاب ، فلا يفسد في الأرض ولا يهلك الحرث والنسل ، وإنما يزيد في جمالها جمالاً وفي تناسقها اتساقاً .

ومــن ثمــار هذا المنهج أن يشعر الإنسان بحب الحياة ، بالوشيجة الحية بينه وبين الكون ؛ فيشعر الإنسان بالصداقة مع الكون الواسع فيعمل وهــو يحــب الزراعة إن كان زارعاً ، ويحب الصناعة إن كان صانعاً ، وهكــذا فــي كل مناحي الحياة ، لدرجة أنه لو كان في يده فسيلة نخل وقد قامت القيامة فليزرعها .

ومــن ثمار هذا المنهج أن يكتسب الإنسان قوته من الله بمنهج الله أن يســتمد القوى الاقتصادية والقوى الاجتماعية والقوى السياسية والقوى المادية من عقيدته التي تصارع الباطل وتتغلب عليه [١] .

[٢] تربية العقــل :

العقل البشري طاقة عظيمة ، ونعمة من أكبر نعم الله على الإنسان وقد فتن الإنسان بعقله ، وقد زادت فتنة الإنسان بعقله في العصر الحديث

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧ – ٧٤ بتصرف .

حيـــن رأى المخترعات التي ينتجها ، والكشوف التي يقع عليها ، وزادت فتنـــته حين وصل إلى الطاقة الذرية وستزداد فتنته كلما تقدمت الحضارة وارتقت ما لم يُقوم بالتربية الإسلامية .

وهـــذه الفتـــنة على حساب الروح ، على حساب الطاقة التي تتصل بالله ، فـــالذي يعتمد على عقله يضل لأن العقل البشري على ضخامته لا يستطيع أن يهتدي وحده ، ولابد له من مدد مشع ينير طريقه في الظلام .

مـــن أجل ذلك رد الإسلام العقل إلى فطرته ، فجعل الصلة مباشرة بيـــن الإنسان وخالقه ، فهو دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه الأحبار بيـــن المخلـــوق والخـــالق ، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى محراب أو هيكل ، دين لا يستكره العقل ، ولا يلوي عنقه ، ولا يقول له : " اغمض عينيك واعتقد " بل شجعه على أن يفتح جميع منافذ الفكر ، ويشد زناده إلى أقصى ما يطيق [١] ، ووضع له المنهج الذي يحقق له الرشد .

المـــنهج الـــذي وضعه الإسلام في تربية العقل : منهج يبدأ بتحديد مجال النظر العقلي ليصون القوى العقلية من أن تتبدد وراء الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها ، وهو في نفس الوقت يعطي الإنسان نصيبه من هذه الغيبيات .

ويـــدرب العقل البشري على طريقة الاستدلال المثمر ليتعرف على الحقيقة من خلال وسيلتين :

---

[١] انظر : الإسلام وبناء المجتمع الفاضل ، للدكتور يوسف عبد الهادي الشال ، ص ٢٤

الوسيلة الأولى :

هـــي وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي ، حيث يبدأ بتفريغ العقل مـــن كـــل المقررات السابقة التي لم تقم على يقين وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن فيهدم منهج المقلدين الذين يقولون: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [١] أو الذين يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً كما قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [٢] .

منهج يقوم على التثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به ، التثبت الكامل قـــبل الـــنطق بحكـــم في أي موضوع ، وأن الأمر يظل معلقاً ما لم يصل الإنســـان إلى الدليل القاطع . فهذه تدريبات للطاقة العقلية لتصل إلى منهج التفكير السليم .

الوسيلة الثانية :

هـــي تدبر نواميس الكون لكي تطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم وذلـــك لأن الكون يجري في دقة عجيبة ونظام لا يختل ، والمسلم مطالب بـــأن يـــتدبر ويتأمل في هذا النظام الذي لا يختل ، وذلك ليعود العقل على دقة النظر وانضباط الأحكام . وقد أفاد المسلمون من هذه الوسيلة ما جعلهم في قمة الأمم في الجوانب العلمية وغيرها ، وكان السبب في هذا فهمهـــم

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣ .

(٢) سورة النجم ، الآية : ٢٨ .

لقولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَـــاتٍ لِـــأُولِي الْأَلْـــبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَـــتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِـــنَا عَـــذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَـــارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ .رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَـــا تُخْـــزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِـــيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (١)

فهـــذه الآيات هي المنهج الكامل للتأمل الإسلامي في ملكوت الله ، . وهي التوجيه الذي يوجه العقل في أول مهمة من مهامه : مهمة تدبر آيات الله في الكون ، إنها تبدأ بالتفكير وتنتهي بالعمل .

مـــنهج تربية العقل في الإسلام يعمل على توجيه الطاقة العقلية إلى تدبـــر حكمة الله وتدبيره ، وإلى توجيه الطاقة العقلية إلى النظر في حكمة التشريع ، قال سبحانه وتعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) وإلى حكمة التشريع في قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ إِذَا ءَامَنُوٓاْ تَدَايَنتُم

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ – ١٩٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٧٩ .

بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ... ﴾ (١) .

منهج التربية العقلية في الإسلام يوجه الطاقة العقلية إلى النظر في سنة الله في الأرض وأحوال الأمم والشعوب على مدار التاريخ ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢).

[٣] تربية الجسم :

ليس المقصود بتربية الجسم تربية عضلاته وحواسه ووشائجه فحسب ، وإنما المقصود أيضاً تربية الطاقة الحيوية والدوافع الفطرية والنزوعات والانفعالات .. والإسلام في تربيته للجسم والطاقة الحيوية يراعي في منهجه أمرين :

الأول : يراعي الجسم من حيث هو جسم ليصل منه إلى الغاية النفيسة المرتبطة به ، وقد جاءت آيات كثيرة وأحاديث عديدة تبين المنهج من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٤) .

وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١١ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٣١ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٦٨ .

إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [١] وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [٢] .

وفي صحيح الإمام البخاري يقول (ﷺ) لعبد الله بن عمرو: ".. فإن لجسدك عليك حقاً " [٣] .

والناظر في توجيهات الإسلام في تربية الجسم يجد أنها لا تقف عند الطعـام والشـراب فحسب ، بل إن الرياضة البدنية والرماية والفروسية وغيرها هي جزء من منهج التربية في الإسلام .

الثانـي : إن المنهج الإسلامي في تربية الجسم لا يقف عند حدود الجسم بمعناه الفسيولوجي البحت ، كما تربى العجول والخرفان وغير ذلك من الأنعام والدواب ، لا يقف عند تربية الأقدام والسيقان وإنما يربي الجسم بكل طاقاته الحيوية المنبثقة منه وهذه بعض معالم هذا المنهج .

المـنهج الذي وضعه الإسلام منهج يعترف بالطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم ، منهج يربيها لا بالقمع ، ولا بالكبت ، ولكن بالتعديل والتهذيب فهـو لا يسـتقذر الطاقة الحيوية ، ولا ينفر منها ، ولا يقول إنها دنس بل يعـترف بها في صراحة كاملة ، بل ويدعو إلى الاستمتاع بالطيبات منها قال تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [٤] . بل يزيـد

---

[١] سورة البقرة ، الآية : ١٧٢ .

[٢] سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .

[٣] رواه البخاري باب حق الجسم في الصوم حديث رقم (١٨٣٩) .

[٤] سورة البقرة ، الآية : ٢٢٣ .

الرســول الكــريم فيجعل عليها أجراً ! قال : " وفي بضع أحدكم صدقة ! قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضـــعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً " [١]، وقال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [٢] .

المـــنهج الذي وضعه الإسلام لتربية الجسم يحرص على المظاهر الجسمية فيجب أن يكون الرجل واضح الرجولة ، والأنثى واضحة الأنوثة ويكـــره التخنث والميوعة ، ويكره المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال لأنـــه يحترم الطاقة الجنسية [٣] . ومن احترامه للطاقة الجنسية يضع لها الضـــوابط والقيود التي تعمل على تنظيفها وتهذيبها وينهج هذا المنهج مع كـــل الغرائـــز الإنسانية . فالذي يسرف في الطعام لا يشبع كما يبدو لأول وهلة بل يصيبه النهم فلا يقنع ولا يستريح ، والذي يسرف في إمتاع الجسم بالراحة لا يشعر بمزيد من الراحة كما يبدو لأول وهلة ، بل يصيبه الكسل والـــترهل .. والذي يسرف في الجنس لا يأخذ مزيد من المتاع بل يصيبه الـــنهم ، فلا يكتفي ولا يشبع . من أجل ذلك كله لا يترك الإسلام الإنسان لشهواته تستعبده وتدفعه إلى الهلاك والبوار ، بل يقوم بضبطها .

ومنهج الضبط في الإسلام منهج فريد في تربية الجسم ، لأنه لا يقوم

---

(١) رواه مسلم ، ك الزكاة ، باب : بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف حديث رقم (١٦٧٤)

(٢) سورة النساء ، الآية : ٣ .

(٣) محمد قطب ، مناهج التربية الإسلامية ص ١٠٧ .

علـــى الكبــت والعقد النفسية كما تخيل " فرويد " الذي أفنى حياته ليخرج الإنســـان مـــن إنسانيته إلى العري والتفحش وإظهار المفاتن والتغني بها ، فالضبط في الإسلام يقوم على منهج التكريم للإنسان ، فالإنسان ليس عبداً لغريزته في المنهج الإسلامي وإنما يحقق إنسانيته من خلال هذه الغريزة . فتلبية غريزة الجوع لا يكون أبداً عن طريق السرقة أو الغش أو الخداع أو إذلال كـــرامة الإنسان ، وإنما عن طريق العمل الشريف الذي يحقق ذاتية الإنسان .

مـــنهج الضـــبط في تربية الجسم في جانب الجنس يمنع المسلم من الـــنظرة الحرام ، والكلمة المائعة ، والسلوك المشين ، يمنعه من أن يقوم بخطف فتاة أو أن يسير معها رغبة في قضاء ما حرمه الله ، ولا يمنعه من الإحساس بميل لإنسانة معينة يعجب بشكلها أو بسلوكها أو بأخلاقها فيذهب لأهلها ويطلب يدها من خلال منهج شرعه الله .

مـــنهج الضـــبط في الإسلام منهج واضح يربط القلب البشري بالله وباليوم الآخر لأنه يضع نصب عيني المسلم قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ . فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [١] وقولـــه ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [٢] .

---

[١] سورة الانفطار ، الآية : ٦ – ٨ .

[٢] سورة الانشقاق ، الآية : ٦ – ٩ .

الفصل الثاني

منهج علماء الإسلام
في نشر الدعوة الإسلامية

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : *في مجال العقيدة*

المبحث الثاني : *في مجال التكاليف والأحكام الشرعية .*

المبحث الثالث : *في فقه الأولويات .*

المبحث الرابع : *في مجال تفسير القرآن الكريم*

الفصل الثاني

منهج علماء الإسلام في نشر الدعوة الإسلامية

تمهيد :

لعلماء الإسلام منهج واضح ومحدد في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها من خلال تخصصاتهم المتعددة ، وذلك لأن الكل يبدأ من القرآن الكريم والسنة النبوية ، والقرآن الكريم والسنة النبوية هما وحي الله الخالد الذي زود العلماء بهذا المنهج الواضح الذي ينحصر في نص محدد يسمى " النقل " ويعتمد على العقل ومشاهدة الحس ، ويتميز بالبساطة والوضوح ، ويتجه إلى منفعة الإنسان في دينه ودنياه ، ولذلك سلك العلماء هذا المنهج في مجال العقيدة والتكاليف والأحكام وتفسير القرآن يتضح هذا من خلال ما يلي .

المبحث الأول

منهج علماء الإسلام في مجال العقيدة

أولاً : التعريف بالعقيدة :

العقيدة لغة من العقد ، وهو الربط والشدة بقوة ، ومنه الإحكام والإبرام ، والتماسك والمراصة والإثبات والتوثق [١] .

العقيدة في الاصطلاح : هي الإيمان الجازم بالله وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وبكل ما جاءت به النصوص الصحيحة في أصول الدين وفي أمور الغيب وأخباره .. والتسليم لله-تعالى-في الحكم والأمر والقدر والشرع ولرسوله (ﷺ) بالطاعة والتحكيم والاتباع [٢] .

والتدين بالعقيدة هو الأصل الذي ينبني عليه التدين بالشريعة ، إذ الإيمان بالله وبالنبي (ﷺ) الذي حمّله الرسالة المشتملة على الشريعة هو أصل التدين بالشريعة أساساً ، ولذلك فإن العلاقة بين العقيدة والشريعة علاقة تلازم يقضي الفصل بينهما إلى انخرام في التدين [٣] .

---

[١] انظر : لسان العرب ، مادة عقد ، فصل العين (٣ / ٢٩٥) .

[٢] راجع : مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة ، د / ناصر عبد الكريم العقل ص ٩ .

[٣] راجع في فقه التدين فهماً وتنزيلاً ، د/ عبد المجيد النجار ، كتاب الأمة (٢ / ١٨).

علاقة العقيدة بالشريعة :

العقيدة في الإسلام تقابل الشريعة ، إذ الإسلام عقيدة – سبق تعريفها – وشريعة تعني بالتكاليف العملية التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية في العبادات والمعاملات .

وإذا كان التدين بالشريعة يتمثل في إجراء السلوك الفردي والاجتماعي ، على حسب مقتضيات الوحي ، في الأمر والنهي .. فإن التدين بالعقيدة يكون بالاستيقان الثابت بحقانية التعاليم العقدية ، استيقاناً لا يراوده الشك بأي حال ، ثم اتخاذ تلك التعاليم المستيقنة مرجعاً في التصرفات السلوكية كلها [١] بحيث يكون كل حكم من أحكام السلوك متفرعاً من أصول العقيدة [٢] .

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري في حقيقة الألوهية ، وعلاقتها بالخالق ، وعلاقة الخالق بها ، فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وآدابهم وأخلاقهم كذلك ، ولا يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها إلا أن تستقر الألوهية وتتبين خصائصها واختصاصاتها [٣] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٣) راجع : الوسطية في القرآن الكريم ، د / علي محمد الصلابي المصراتي ، ط دار النفائس ، الطبعة الأولى ، ص ٢٥٨ .

ولهذا فلابد من توحيد الألوهية لأن من أقر بتوحيد الربوبية فقط لم يكـن مسـلماً ، فقد أقر بذلك إبليس قال – تعالى– حكاية عنه: " رب بما أغويتنـي " وأقر به المشركون الذين بعث فيهم رسول الله (ﷺ) ، كما دلت على ذلك الآيات البينات وإنما لابد من توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية .

قـال شيخ الإسلام ابن تيمية : " التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضـمن إثـبات الإلهية لله وحده ، بأن يُشهد أن لا إله إلا الله ولا يعبد إلا إيـاه ... " إلى أن قال : " وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية ، وهـو اعـتقاد أن الله وحده خلق العالم ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكـلام والتصـوف ، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل ، فقد أثبتوا غاية التوحيد ، وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه ، فقد فنوا في غاية التوحيد .

فـإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ، ونزهه عـن كـل ما ينزه عنه ، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء ، لم يكن موحداً حـتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده ، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعـبادة ، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك لـه ، والإله هو المألوه الذي يسـتحق العبادة ، وليس الإله بمعنى القادر على الاختراع ، فإذا فسر الإله بمعـنى القـادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله ، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية ، وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه ، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله (ﷺ) ، فإن مشركي العرب كانـوا

مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين "[١] .

والعلماء مجمعون أن توحيد الربوبية وحده غير كاف ، يقول شارح الطحاوية في العقيدة السلفية : " إن التوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية ، الذي يتضمن توحيد الربوبية "[٢] .

منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى توحيد الألوهية :

علـــى الداعــية إلى الله تعالى أن يبين للناس أنهم قد أقروا بتوحيد الربوبـــية لله بموجب فطرهم ونظرهم في الكون ، وأن الإقرار به وحده لا يكفـــي للإيمان بالله ولا ينجي صاحبه من العذاب ، لهذا " ركزت دعوات الرسل على توحيد الألوهية ، خصوصاً دعوة خاتم الرسل نبينا محمد (ﷺ) فكـــان يطالـــب الناس أن يقولوا : لا إله إلا الله المتضمنة العبادة لله وترك عبادة ما سواه ، فكانوا ينفرون منه ويقولون : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[٣] ، وحاولوا مع الرسول (ﷺ) أن يترك هذه الدعوة ويخلـــي بيـــنهم وبيـــن عبادة الأصنام ، وبذلوا في ذلك معه كل الوسائل بالترغيـــب تارة وبالترهيب تارة ، وهو –عليه الصلاة والسلام – يقول : " والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر لا أتركه حتى يظهره الله أو أهلك دونه " .

وكانت آيات الله تتنزل عليه بالدعوة إلى هذا التوحيد ، والرد على

---

[١] انظر : الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد . د / صالح بن فوزان ، ص ٤١ ، ٤٢ .

[٢] شرح الطحاوية ، للعلامة صدر الدين : علي بن علي بن محمد ، ص ٣٣ .

[٣] سورة ص الآية رقم : ٥ .

شبهات المشركين ، وإقامة البراهين على بطلان ما هم عليه لبيان المنهج الذي جاء به الرسول(ﷺ)والذي يتجلى فيما يلي :

١ - أمره -سبحانه- بعبادته وترك عبادة ما سواه ، كما في قوله تعالى:﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (١) وقوله:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله:﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

٢ - ومنها إخباره أنه أرسل جميع الرسل بالدعوة إلى عبادته والنهي عن عبادة ما سواه كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ (٣) .

٣ - ومنها إخباره -سبحانه- أنه خلق الخلق لعبادته كما في قوله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٤) .

٤ - ومنها الاستدلال على توحيد الإلهية بانفراد بالربوبية والخلق والتدبير، كما في قوله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾(٥) وقوله:﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ (٦)

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ٣٦ .

(٤) سورة الذاريات الآية : ٥٦ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢١ .

(٦) سورة فصلت ، الآية : ٣٧ .

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ (١) .

٥ – ومنها الاستدلال على وجوب عبادته سبحانه بانفراده بصفات الكمال وانتفاء ذلك عن آلهة المشركين كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (٢) وقوله سبحانه عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (٣) .

٦ – ومنها تعجيزه لآلهة المشركين كقوله (ﷻ): ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (٤) وقوله (ﷻ): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (٥) .

٧ – ومنها بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله ، وبيان مآلهم مع من عبدوهم ، حيث تتبرأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ . إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٧ .
(٢) سورة مريم ، الآية : ٦٥ .
(٣) سورة مريم ، الآية : ٤٢ .
(٤) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٩١ – ١٩٢ .
(٥) سورة الحج الآية : ٧٣ .

كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (١) .

٨ – ومنها أنه سبحانه بين أن هؤلاء المعبودين من دونه لا يحصل منهم نفع لمن عبدوهم من جميع الوجوه (٢) ، ومن هذا شأنه لا يصلح للعبادة ، كما في قوله تعالى:﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ (٣) .

فهذه النصوص تبين أن الله-سبحانه وتعالى-هو وحده المنشئ للكون وما فيه ، وأنه المدبر له ، وأنه وحده الذي يعلم غيبه وظاهره ، وأنه – سبحانه – جعل هذا الكون مسخراً لإرادة الإنسان والتنعم بنعمه ، وأنه سبحانه هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، وأنه على كل شيء قدير ، ولا قادر في هذا الوجود قدرة مطلقة على الكون وما فيه سواه تعالى الله علواً كبيراً .

---

(١) سورة البقرة الآيات : ١٦٥ – ١٦٧ .

(٢) انظر : الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد ، د / صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان ، ط دار العاصمة ، ط ٣ ، ص ٤٥ – ٤٧ بتصرف .

(٣) سورة سبأ ، الآية : ٢٢ .

منهج العلماء في إثبات العقائد :

النـــاظر إلى منهج علماء الأمة في إثبات العقائد الإسلامية يجد أن الاخـــتلافات نشأت بسبب هذا التساؤل : هل طريق العلم بالعقائد ومعرفة أحكامهـــا هو " النقل " الممثل في نصوص القرآن الكريم ، وفيما صح من أقوال الرسول (ﷺ) وأفعاله وتقريراته ، أم أن طريق العلم بها هو " العقل " المعتمد على التأمل والنظر ، وعلى مناهج البرهنة والاستدلال التي قعد لها المفكـــرون ، ووضـــع قوانيـــنها علماء الجدل مستنيرين بالمنطق وقوانينه والفكر وقضاياه .

ولـــم يلبـــث أن انبثق عن هذا التساؤل الرد العملي من واقع حال المســـلمين أنفسهم ، فقد صنفت مناهجهم في المعرفة ، وطرقهم في إثبات العقائد في ثلاثة مناهج ، وهي بنظرة إجمالية كما يلي :

١ – منهج المتكلمين الذين يعتمدون أولاً على النص مع احترامهم للعقـــل وقضاياه والفكر وقوانينه . فإذا خالف العقل النص أخذوا بمقتضى النص وأهملوا جانب العقل .

٢ – مـــنهج الفلاســـفة الذين يعتمدون أولاً على العقل مع إيمانهم بالنص ، فإذا خالف النص العقل ، لجأوا إلى تأويل النص حتى يوافق العقل .

٣ – مـــنهج المتصـــوفة الذيـــن يعـــتمدون على الرياضة الروحية والمجـــاهدة النفســـية وتصفية القلب مما يحول بينه وبين صحيح المعارف ويقيني البراهين .

وذلــك فــي نظــرهم لا يتم إلا عن طريق العمل الدائب بنصوص الكتاب والسنة مع ترك علائق هذه الحياة المادية حتى تعاض عليهم من الحق(ﷻ) معــرفة الحقــائق الإلهية وينكشف لهم من المعاني ما يصلون به إلى علم يقيني بالمسائل الغيبية المتعلقة بالله-سبحانه وتعالى-[١] .

منهج الدعوة والمشاكل العقدية الراهنة في الواقع الإسلامي :

المطلــوب مــن المنهج الدعوي أن يعالج المشاكل التي تحدث في الأمة متعلقة بالأسس العقدية العامة وذلك من خلال ما يلي :

{ ١ } تقديــم العقيدة للناس بطريقة من شأنها أن تقنع من لا يكون مقتــنعاً بها وأن تعمق الفهم والاقتناع بالنسبة لمن يكون موقفه منها موقف القــبول ، وينقصه الوعي بأبعادها الحقيقية لسبب أو لآخر من الأسباب ، وذلــك لأن طريقة التقديم تمثل خطة تشتق من واقع العقول المخاطبة [٢]. وتهــدف إلــى أن تصــير أحكام العقيدة المجردة واقعاً تصديقياً في أذهان المخاطبين وهذه الطريقة قد سلكها القرآن الكريم حيث تعددت صيغ الإقناع بالعقــيدة بــتعدد البيئات والأزمان والأماكن وكانت أدلة العقيدة من خلال الكون والإنسان والنبات والحيوان .

{ ٢ } تقديم العقيدة للناس بحيث تكون مرجعاً أصلياً يصدرون عنه في الفكر والسلوك وموجهاً للحياة في مظاهرها المختلفة وذلك بإبــــراز

---

[١] راجع : إثبات العقائد الإسلامية بين النصيين والعقليين ، د / محمد عبد الرحمن بيصار بحث من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية (٤ / ١٣) .

[٢] راجع : في فقه التدين فهماً وتنزيلاً ، د / عبد المجيد النجار (٢ / ٢٠) .

الأبعــاد العملــية لحقائقهــا مهما كانت نظرية مجردة ، وربطها بالمشاكل الواقعية الناجمة في الحياة ، بما يظهر ويوضح أنها الفرقان المصحح لكل انحــراف [١] . وهــذا يحتاج أن تقدم بصياغة دعوية يقصد منها الوعي بأبعادها وإقناع الجاهلين بها ، والمتشككين فيها .

يقــول الدكتور عبد المجيد النجار : " أولى الفكر الإسلامي عناية كبــيرة لصياغة العقيدة ، بقصد الإقناع بها في مضمار الدعوة إلى التدين والمحافظــة عليها قواماً صحيحاً صافياً يضمن استمرارية الدين ، دون أن يصــيبه انحــراف كمــا أصاب أدياناً قبله ، والمحافظة عليها أيضاً إطاراً مرجعــياً ، يــتم فيه كل اجتهاد ديني في توجيه الحياة ، وقد خصص لهذه الصــياغة علم بأكمله هو علم العقيدة ، الذي سمي أيضاً بعلم الكلام ، كما سمي بعلم التوحيد " [٢] .

{ ٣ } المــتأمل فــي الوضــع العقدي الراهن للمسلمين ، يجد أن المشاكل التي تتتابه ترجع إلى مشكلتين رئيسـتين :

المشــكلة الأولــى : هــي مشكلة الانفصال أو شبه الانفصال بين العقيدة والمظاهر التطبيقية في مختلف وجوه الحياة . فالدين الإسلامي هو عقيدة تتفرع عنها شريعة تشمل كل أوجه التصرف الإنساني ، بحيث يكون كــل حكــم من أحكام السلوك متفرعاً من أصل من أصول العقيدة ، التي يستجمعها حقائق أساسية ثلاث : الألوهية ، والنبوة ، والبعث ، بحيث يكون

---

[١] المصدر السابق ، ص ٢١ .

[٢] المصدر السابق ، ص ٢١ – ٢٢ .

كـل منشط من مناشط المسلم ، وكل اجتهاد من اجتهاداته في شئون الحياة مستمداً من أصول العقيدة ، جارياً بحسب مقتضياتها [١] .

ولكـن مجـريات الواقع الإسلامي خلال عهد التراجع الحضاري أفضـى إلـى انفصال العقيدة عن مناشط الحياة المختلفة .. وغدت حقائق العقيدة تشبه أن تكون تصديقات ذهنية ، غايتها في ذاتها ، وضعف الشعور بغايـتها السلوكية ومن الأمثلة الدالة على ذلك أن حقيقة التوحيد التي كانت فـي عهـد الازدهار الإسلامي ، تطبع حياة المسلمين كلها تشريعاً وآداباً وفنوناً وعمارة ، أصبحت الآن منحسرة في أذهان المسلمين إلى بعد واحد تجريدي هو وحدانية الذات الإلهية ، وتقلص أثرها في مناحي الحياة العملية وقـد استفحل هذا الوضع عندما انفتح المسلمون على الحضارة الغربية ، بمـنجزاتها الـباهرة ، حتى أصبحوا يقلدون على غير هدى من مرجعية عقدية ، تُرَشِّد ذلك الاقتباس ، وتجعله في إطار من الدين .

المشـكلة الثانية : هي الغزو الأيديولوجي الغربي ، الذي استهدف منذ زمن العقيدة الإسلامية أساساً ، ومظاهرها السلوكية في مختلف مظاهر الحياة ، وقد كان هذا الغزو الأيديولوجي شبيهاً بالغزو الذي حدث في القرن الثانـي ، من قبل أهل المذاهب والأديان ، إلا أنه صادف من المسلمين في هذا العصـر ضعفاً حضارياً وفكرياً ، واستعدى عليهم بمنجزات العلم ، وقوة الحضارة ، فإذا هو غزو شامل للمنظومة الإسلامية كلها تسخر فيه الفلسفة والعلم والإعلام جميعاً ، بل والتكنولوجيا المادية أيضاً .

---

[١] المصدر السابق ، ص ٤٠ .

وقـد أحدث هذا الغزو أثره البين ، في حياة المسلمين ، ليس على مستوى السلوك فحسب ، ولكن على مستوى الاعتقاد أيضاً ، وهو ما يبدو فـي المذهبية المادية ، التي تسربت إلى الشباب الإسلامي ، وفي العلمانية التـي أصبحت مذهباً لكثير من النخب المثقفة في العالم الإسلامي ، وهي التي تسيطر على الحظوظ التربوية والاقتصادية والثقافية والسياسية للأمـة فانطبعت هذه المظاهر كلها بطابع الإيديولوجية الغربية [١] .

{ ٤ } مـن مهام الفكر العقدي أنه يتعلق بمنهج الدعوة الاستدلالي علـى قضايا تشريعية عملية ، كالانتصار لحرمة الربا ببيان ما يؤدي إليه مـن الدمـار الاقتصادي ، حرمة الخمر والزنا ببيان ما ينجر عنهما من الدمـار الصحي والاجتماعي ، ومقدرات الشريعة في الحدود ببيان الفوائد التـي تعـود علـى الفرد والمجتمع ، وكذلك الأمر في القضايا التشريعية الأساسية كلها [٢] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

المبحث الثاني

منهج علماء الإسلام في مجال التكاليف والأحكام الشرعية

انتهج علماء أصول الفقه منهج الاستنباط القائم على استخراج الأحكام الفرعية – لكل ما يتعرض له الإنسان في حياته اليومية – من أصول الشريعة الأساسية وهو منهج يقوم على الفهم والتحليل لتحقيق الشرع وعلى وضع منطق للأفعال التكليفية ، وهي الفرض أو الواجب وهو الضروري إيجاباً ، وعكسه المحرم أو المحذور وهو الضروري سلباً ، ثم المندوب وهو الاختياري إيجاباً وعكسه المكروه وهو الاختياري سلباً ، وما بين الإيجاب الضروري والاختياري ، والسلب الضروري والاختياري ، هناك الحلال أو المباح .

فهذه الأحكام التكليفية الخمسة من جهة الفاعل تقوم على أحكام وضعية خمسة أخرى من جهة ميدان الفعل ، فكل فعل له سبب ، وشرط ومانع ، ويؤدي عزيمة أو رخصة ، ويكون صحيحاً أو باطلاً .
وتوضيح ذلك كما يلي :

السبب مثل:الصلاة للتقوى ، والشرط مثل:الوضوء ، والمانع مثل: عدم القدرة أو الحيض ، والعزيمة:كمن يصلي واقفاً ، والرخصة:كمن يصلي قاعداً ، والصحة:في اكتمال عدد الركعات ، والبطلان:في الزيادة على المشرع .

وهذا المنهج يرتكز على التيسير ورفع الحرج لأن أحكام الإسلام تزينت بالتيسير ، وتجملت شرائعه بدفع المشقة ، وتطيبت مقاصده برفع الحرج والضيق .

١ ـ القرآن يدعو إلى التيسير :

المتأمل في كتاب الله (ﷻ) يجد أن الله – سبحانه – ينفي الحرج عن دينه فيقول ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [١] ويعقب ـ سبحانه وتعالى ـ على التكاليف بإرادة التيسير فيها ، كما قال بعد إيجاب الصيام مع رعاية المشقة في السفر والمرض: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [٢] . وكما قال سبحانه بعد اشتراط الوضوء للتطهر ، وصحة الصلاة ، ورعاية الحرج عند انعدام الماء والمشقة ، والعجز عنه لمرض أو ضيق وقت أو نحو ذلك : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٣] .

وعند ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما خصّ به رسوله (ﷺ) من شرح صدره ، ووضع وزره ، ورفع ذكره ، أبان أن العسر مدفوع ، مطارد باليسر ، أينما كان ، بل أعقبه بيسرين فأبطلا إعساره فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [٤] .

وهذا المعنى يؤكده ما أخرجه ابن أبي حاتم والبزار عن أنس بن مالك يقول: " كان رسول الله (ﷺ) جالساً وحياله جحر فقال : " لو جاء

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٨٥ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٦ .

(٤) سورة الشرح : من ١ – ٦ .

العسر فدخل هذا الجحر ، لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه " [١] .

وفي كون العسر الواحد مطارداً بيسرين ، أخرج ابن جرير وأبو بكر الجصاص وابن أبي حاتم بسنده عن الحسن ، أن رسول الله (ﷺ) قال : " لن يغلب عسر يسرين " [٢] .

٢ ـ السنة تدعو إلى التيسير :

أحاديث الرسول (ﷺ) بينت المنهج الذي يرتكز عليه الدعاة في دعوتهم ففي الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: " إن دين الله يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا " [٣] . وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً : " إن دين الله يسر إن دين الله يسر ، إن دين الله يسر " ثلاثاً [٤] .

وفيه أيضاً بسند صحيح من حديث الأعرابي : " إن خير دينكم أيسره ، إن خير دينكم أيسره ، إن خير دينكم أيسره " [٥] .

بل إن رسول الله (ﷺ)ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً " [٦] .

---

(١) قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح ، وقال ابن كثير : رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل عن عبد الله بن مسعود . انظر : تفسير القرآن العظيم : لابن كثير(٤ / ٥٢٧)

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٥٢٧) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان (١ / ٩٣) حديث رقم : ٣٩ .

(٤) مسند أحمد (٥ / ٦٩) .

(٥) مسند أحمد (٤ / ٣٣٨) .

(٦) البخاري ج ١٠ ، حديث رقم : ٦١٢٦ .

ويوضـح رسول الله (ﷺ) أهمية الارتكان على التيسير في الدعوة والتبليـغ والتكليـف فيترك الأمر خشية أن يشق على المسلمين أو يفرض عليهم ، فيقول في أمر السواك : " لولا أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة " (١) .

ولمـا خـرج (ﷺ)في أوائل ليالي رمضان فصلى في المسجد قيام رمضـان ، فصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس يتحدثون بذلك ، فاجتمع أكـثر منهم ، فخرج النبي (ﷺ)في الليلة الثانية فصلوا بصلاته ، فأصبح الناس يذكرون ذلك ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله ، فلم يخرج إليهم رسول الله (ﷺ) إلا لصلاة الفجر ، فلما قضى الفجر أقبل على الـناس ، ثـم تشهد ، فقال : " أما بعد ، فإنه لم يخف عليّ شأنكم الليلة ، ولكني خشيت أن تُفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها " (٢) .

وهكذا نجد أن النبي (ﷺ) بسنته القولية والفعلية يدعو إلى التيسير ، ويـرفع الحـرج ، مـبلغاً ومطـبقاً ، واستقراءً لهذا الأصل من كل هذه النصوص ، خرَّج الفقهاء قواعد كلية تراعي التيسير في الأحكام والتكليف تخفيفاً على الناس ، ودفعاً للتعسير ، فوضعوا قاعدة كلية تقول : " المشقة تجلب التيسير " وأخرى تقول : " عُفي عما عَسُر " (٣) .

---

(١) متفق عليه ، كتاب الجمعة باب السواك (٢ / ٣٧٤) .

(٢) أخـرجه الشـيخان ، الـبخاري كـتاب الجمعة (٢ / ٤٠٢) برقم : ٩٢٤ . ومسلم (٦ / ٢٨٤) برقم ١٧٨ .

(٣) انظـر : الأشباه والنظائر لابن نجيم ، ص ٧٥ والأشباه والنظائر للسيوطي ص ٧٦ ، والشرح الصغير على أقرب المسالك للدردير بحاشية الصاوي (١ / ٦٠) .

فمن باب أولى أن ينتهج الدعاة هذا المسلك ، سيما وأن نبي الإسلام -عليه الصلاة والسلام- نبه الدعاة خاصة بذلك ، فيما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً : " إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين "[١] وحديث " بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا " [٢] .

ولمـــا ابتعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن دعاة معلمين ، أوصاهما رســـول الله (ﷺ) بذلك ، فقال لهما : " بشرا ويسرا ، وعلما ولا تنفرا " ، ونـــص على الدعوة بيسر فقال لهما : " ادعوا الناس ، وبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا " [٣] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب يسروا ولا تعسروا ج١٠ ، حديث رقم : ٦١٢٨.

(٢) أخـــرجه مسلم كتاب الجهاد والسير (١٢ / ٢٦٧) حديث رقم : ٦ ، وأبو داود كتاب الأدب (٤ / ٢٦٠) حديث رقم ٤٨٣٥ .

(٣) أخـــرجه مسلم ، كتاب الأشربة ، باب : بيان أن كل مسكر خمر (١٣ / ١٧١) حديث رقم : ٧٠ - ٧١ .

٣ ـ وجوه التيسير في العبادات والتكاليف [١]

ويتجلى ارتكاز التشريع والتكليف على أصل التيسير ، ونبذ التعسير في شريعة الإسلام ، من وجوه يحصل بها التيسير في الطاعات والعبادات من ذلك :

١ – تقليل التكاليف :

فشريعة الإسلام لم تتعسف الناس بتكاليف متكاثفة تثقل كاهلهم بها ، وإنما قللت التكاليف تيسيراً عليهم ، ولو أن الله-تعالى-ثقل عليهم ، لما حق لأحد أن يسأل أو يعترض ، لكنه-تعالى-يسر عليهم ، فجعل الصلاة خمس صلوات في اليوم والليلة ، مع أنها في أول الأمر فرضت خمسين ، فقللها -تعالى-إلى خمس ، تعدل في أجرها الخمسين كما هو معروف من قصة الإسراء .. والحج في العمرة مرة .. والزكاة ربع عشر مال الغني بعد حولان الحول ، على ما يفيض عن حاجته .. والصوم أيام معدودات ، كما عبر عنه القرآن تدليلاً على قلته وخفته .. كل ذلك تيسيراً ورفعاً للحرج والمشقة .

٢ – جعل ما يرغبون فيه طاعة :

وذلك أن شريعة الإسلام سنّت للناس في الطاعات ما يرغبون فيه بطبيعتهم ، لتكون الطبيعة داعية إلى ما يدعو إليه العقل ، فتتعاضد الرغبتان ، ولذلك سن تطييب المساجد وتنظيفها ، والاغتسال يوم الجمعة والتطيب فيه ، واستحب التغني بالقرآن وحسن الصوت بالأذان ، كما أنه تعالى جعل الزواج طاعة ، والجماع مثوبة وأجراً ، وفي الصحيح مما قاله

---

[١] راجع : من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق ، عبد الله الزبير ص ٨٧ – ٩١ .

رســـول الله (ﷺ): " وفي بضع أحدكم صدقة " قالوا : يا رسول الله يأتي أحدنــا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : " أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً " (١) .

٣ – ترك ما تختلف به قلوبهم :

فيترك بعض الأمور المستحبة لذلك ، ومن ذلك أقوال الرسول (ﷺ) لعائشـــة : " لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ، ثم لبنيته على أساس إبراهيم (عليه السلام) " .

وفـــي رواية : " لولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية ، فأخاف أن تُنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت ، وأن ألصق بابه بالأرض " (٢) .

قال النووي في شرح الحديث : " وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكـــام ... قال : ومنها : تألف قلوب الرعية وحسن حياطتهم ، وأن لا يــنفروا ، ولا يــتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي ... " (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد : مسلم كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٧ / ٩٢) ، حديث رقم ٥٣ .

(٢) مــتفق عليه ، البخاري كتاب الحج باب فضل مكة وبنيانها (٣ / ٤٣٨) حديث رقم : ١٥٨٤ ، ١٥٨٥ .

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم (٩ / ٩٤) .

٤ – اشتراط القدرة والاستطاعة في التكليف :

فلا تكليف إلا بميسور ومقدور ، والفعل الذي لا قدرة للمكلَّف عليه لا يُكلف به ، وقد قال الله تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١) وقال سبحانه:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ (٢) .

ويقول النبي ﷺ : " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " (٣) .

٥ – التدرج في تشريع ما فيه مشقة :

وذلك أنه لا يشرع ما فيه مشقة إلا شيئاً فشيئاً ، كما في قول عائشة – رضي الله عنها – : " إنما أنزل أول ما نزل منه سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ولـــو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً " (٤) .

٦ – تخفيف ما فيه مشقة من العبادات :

ولقد خفف الشرع على الناس عبادات كثيرة ، بأنواع من التخفيفات منها :

التخفيف بالإسقاط : كإسقاط العبادات عند وجود أعذارهـــا ، كإسقـــاط

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٧ .

(٣) البخاري كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن الرسول (١٣ / ٢٦٤) .

(٤) أخـــرجه الـــبخاري في كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (٩ / ٣٨) حديث رقم ٤٩٩٣ .

الصلاة عن الحائض والنفساء .. وعدم وجوب الحج عمن لم يجد طريقاً إلا البحر ، عندما كان الغالب عدم السلامة .. وعدم وجوب الحج على المرأة إذا لم تجد محرماً أو رفقة مأمونة .

التخفيف بالتنقيص : كقصر الصلاة وتنقيص ما عجز عنه المريض من أفعال الصلوات ، كتنقيص الركوع والسجود إلى القدر الميسور من ذلك .

التخفيف بالإبدال : كإبدال الوضوء والغُسل بالتيمم .. وإبدال القيام في الصلاة بالقعود والاضطجاع .. وكإبدال الركوع والسجود بالإيماء .. والصوم بالعتق.. وكإبدال بعض أعمال الحج والعُمرة بالكفارات عند قيام الأعذار .

التخفيف بالتقديم : كتقديم العصر إلى الظهر ، والعشاء إلى المغرب في السفر والمطر .. وكتقديم الزكاة على حولها .. والكفارة على حنثها .

التخفيف بالتأخير : كتأخير الظهر إلى العصر لسبب يقتضيه .. وتأخير رمضان للمريض والمسافر .. وتأخير الصلاة عن وقتها في حق مشتغل بجهاد ، أو بإنقاذ غريق أو نحوه .

التخفيف بالترخيص : كصلاة المتيمم مع الحدث .. وصلاة المستجمر مع فضلة النجو .. وكأكل النجاسات للمداواة .. وشرب الخمر للغصة إذا لم يوجد ما يدفعها .. والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه .

التخفيف بالتغيير : كتغيير نظام الصلاة للخوف " أي : صلاة الخوف" (١)

---

(١) راجع قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام (٢ / ١٩٢) والأشباه والنظائر للسيوطي ، ص ٨٢ .

فالإســـلام يراعـــي أسباب التخفيف ، فيخفف على المنتمين إليه ، ويـــنظر إلـــى الأعذار التي يشق على المسلم العبادة بها فيعتبرها ، ويبني عليها هذه التخفيفات والتيسيرات (١) .

المبحث الثالث

منهج علماء الإسلام في فقه الأولويات

المتأمل لمنهج الدعوة في فقه الأولويات يجد أنه منهج تربوي حكيم طبقه الله وطبقه رسول الله (ﷺ) ، ويجب أن يرتكز عليه الدعاة في التبليغ والتطبيق حيث كان رسول الله (ﷺ) يبدأ بالأهم قبل المهم ، وبالفرائض قبل الـــنوافل ، ويغلـــب الإباحة على التحريم ، ويقدم الترغيب والتبشير على الترهيـــب ، ففي الحديث الذي رواه البخاري عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقـــه مـــا يقول ، حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله (ﷺ): خمس صلوات في اليوم والليلة ، فقال : هل عليّ غيرها ؟ قال : لا إلا أن تتطوع ، قال رسول الله (ﷺ): وصيام رمضان . قال : هل عليّ غيره ؟ قال : لا إلا أن تطوع . قال : وذكر رسول الله (ﷺ) الزكاة .قال : هـــل عليّ غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوع . قال فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله (ﷺ) أفلح إن صدق" (٢)

---

(١) الأعـــذار التي اعتبرها الشرع لتخفف بها على الناس التكاليف هي : السفر والمرض والإكـــراه والنســـيان والجهل ببعض التفاصيل والعسر ، وعموم البلوى . راجع لها : الأشباه والنظائر للسيوطي ، ص ٧٧ – ٨٠ .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان باب الزكاة من الإسلام (١ / ١٠٦) حديث رقم : ٤٦

فهذا الحديث يدل على أن النبي (ﷺ) قدم الأهم على المهم ، ولمـــا قـــال الـــرجل لا أزيد على هذا ولا أنقص أثبت له الفلاح . قال النووي : أثبت لـــه الفلاح لأنه أتى بما عليه ، وليس فيه أنه إذا أتى بزائد على ذلك لا يكـــون مفلحـــاً ، أنـــه إذا أفلـــح بالواجب ففلاحه بالمندوب مع الواجب أولى .... " [١] .

نماذج من القرآن الكريم :

فـــي القـــرآن الكـــريم نمـــاذج كثـــيرة تندرج تحت فقه الأولويات والموازنـــات والترجيحات ، فنجد أن الحق سبحانه يوازن بين شيئين ليبين أن أحدهما أولى من الآخر من ذلك ما يلي :

١ – الإخفاء في التطوعات أولى من الإظهار :

قـــال (ﷻ) : ﴿ وَمَـــا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّـــالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [٢] .

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية : " ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع ، لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار وكذلـــك سائر العبادات ، الإخفاء أفضل في تطوعها لانتفاء الرياء فيها ، وليس كذلك الواجب " [٣] .

---

[١] فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١ / ١٠٨) .

[٢] سورة البقرة : ٢٧٠ – ٢٧١ .

[٣] الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبي (٣ / ٣٣٢) .

ويؤكد أفضلية الأسرار في التطوعات حديث السبعة الذين يظلهم الله يـوم لا ظل إلا ظله الثابت في الصحيحين وفيه : " ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه " [١] .

٢ – الجهر بالعبادات المفروضة أولى من الإخفاء :

إذا كـان الإخفـاء في التطوعات هو الأفضل والأسلم فإن إظهار العبادات المفروضة من صلاة وصوم وزكاة ، هو الأفضل والأولى . وهذه الأولوية لم تنص عليها الآيات القرآنية ، ولكن علماء التفسير عند حديثهم عـن أفضـلية إخفاء صدقة التطوع ، يرافقونه بالحديث عن مقابلها وهي الصدقة الواجبة [٢] .

إلا أن حديـث الرسـول (ﷺ) وإجماع العلماء يشهد لها . من هذه الأحاديث قولـه (ﷺ) في شأن الصلاة : " أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة " [٣] .

والعلماء حينما ينصون على إظهار الأركان يخصون الزكاة بالذكر فقـط ، بحيث إن أغلب كلامهم يدور حولها ولا يتناولون الأركان الأخرى إلا فـي الـنادر ، ففـي شأن الزكاة يقول الحسن : " إظهار الزكاة أحسن وإخفاء التطوع أفضل ، لأنه أدل على أنه يراد الله (ﷻ) به وحده " [٤] .

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة . مسلم كتاب الزكاة (٢ / ٧١٥) .
(٢) فقه الأولويات دراسة في الضوابط ، محمد الوكيلي ص ٦٨ .
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان (٢ / ٢١٤) .
(٤) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (٣ / ٣٣٢) .

٣ – إبراء المدين أولى من إنظاره :

إسقاط الدين عن المدين غير القادر على السداد لعسره أو شدة نزلت به أفضل في الأجر عند الله من إنظاره لوقت الرخاء قال سبحانه : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (١) .

وفي فضل إسقاط الدين أحاديث كثيرة منها الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن حذيفة قال : إني سمعت النبي (ﷺ) يقول : " إن رجلاً كان فيمن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه ، فقيل له : هل عملت من خير ؟ قال : ما أعلم . قيل له : انظر . قال : ما أعلم شيئاً غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر . فأدخله الله الجنة " (٢) .

٤ – تغليب الإباحة على التحريم :

الإسلام خالف الشرائع السالفة ، إذ اتسمت تلك الشرائع بتغليب التحريم تشديداً على أقوامها وأممها قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (٣) .

وقال سبحانه : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٠ .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٦/٤٩٤)
(٣) سورة النساء ، الآية : ١٦٠ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١٤٦ .

أمـــا الإسلام فقد جاء ليفك قيود التحريم والحظر ، ووضع الأغلال التـــي كانـــت تضيق على الناس ، بل إنه مهمة رسول الله (ﷺ) الذي جاء رحمـــة للعالميـــن والقرآن في ذلك صريح فقد قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُـــولَ النَّـــبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وفي إطلاق الإباحة لكل زينة ، ولكل طيب جاء قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (٢) .

وقد أنكر القرآن الكريم على كل من يحرم شيئاً ظناً منه أو جهلاً ، ويطالبهم بالدليل والبرهان فيما حرموه قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ (٣) .

وعندما حاول بعض الصحابة تحريم بعض الأشياء على أنفسهم تصدى لهم رسول الله (ﷺ) وبين لهم خطأهم . قال ابن جريج عن عكرمة : أن عثمان ابن مظعون ، وعليّ بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالم مولـــى أبي حذيفة ، تبتلوا فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المســـوح ، وحـــرموا طيبات الطعام واللباس ... وأجمعوا على قيام الليل وصيام النهار فنزل قوله تعالـــى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٣٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٠ .

مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [١] ولما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله (ﷺ) فقال : " إن لأنفسكم حقاً ، وإن لأعينكم حقاً ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا ، فليس منا من ترك سنتنا . فقالوا : اللهمأسلمنا واتبعنا ما أنزلت [٢] .

والـــذي يـــنظر إلى الفقه ويعرف مداخله ومنطلقاته ويفهم مسائله ويـــتابع مساره ومسالكه في تقرير الأحكام واستنباطها يجد دوران الأحكام الشـــرعية جميعها حول الإباحة ، بل الإباحة هي المحور الرئيس للأحكام الشرعية [٣] .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٨٧ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ / ٨٧ – ٨٨) .

(٣) راجع : من مرتكزات الخطاب الدعوي ص ٩٧ – ٩٨ .

المبحث الرابع

منهج العلماء في تفسير القرآن الكريم

قبل أن نبين منهج العلماء في تفسير القرآن الكريم ، نتحدث عن معنى التفسير في اللغة والاصطلاح .

التفسير في اللغة : هو التبيين والإيضاح ، مأخوذ من الفَسْر أي الإبانة والكشف ، ويطلق التفسير أيضاً على التعرية ، قال ثعلب : تقول : فسرت الفرس : عريته ، لينطلق من حصره .

ومن هنا يتبين لنا أن التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي ، وفي الكشف المعنوي ، بالإبانة عن المعاني المعقولة من وراء الكلام .

التفسير في الاصطلاح : ذكر الإمام السيوطي عن بعض العلماء أن التفسير في الاصطلاح هو : علم نزول الآيات ، وشئونها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها ومن أظهر ما ذكر فيه ما نقله الحافظ السيوطي عن الإمام الزركشي أنه (علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد-عليه الصلاة والسلام-وبيان معانيه واستخراج حكمه وأحكامه ، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات) [1] .

---

[1] الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي (٢ / ٢٢٣) .

وقريـــب منهم قول بعضهم : (إنه علم يبحث فيه عن أقوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية) .

المطلع على كتب التفسير يتبين له أنها خمسة أنواع :

١ – نوع يسمى التفسير بالمأثور أو بالرواية .

٢ – نوع يسمى التفسير بالرأي أو بالدراية .

٣ – نوع يسمى التفسير الموضوعي .

٤ – نوع يسمى التفسير الإجمالي .

٥ – نوع يسمى التفسير المقارن .

ولهـــذه الأنواع مناهج سلكها العلماء في تفسيراتهم للقرآن الكريم ، فالتفسير التحليلي يتكون منهجه من الخطوات الآتية :

١ – ذكر المناسبة وسبب النزول .

٢ – طلب المعنى من القرآن الكريم ، فإن لم يجده طلبه من السنة النـــبوية ، فـــإن لـــم يجـــده رجع إلى قول الصحابة فإنهم أدرى بالتنزيل والظروف .

٣ – ذكر الجانب العقلي .

٤ – ذكر الجانب الفقهي .

٥ – ذكر الجانب اللغوي .

٦ – ذكر الجانب النحوي .

٧ – ذكر القراءات وبيان المعاني .

٨ – الاحتكام إلى الحروف من كلام العرب .

٩ – الرجوع إلى الشعر .

١٠ – الموقف من الإسرائيليات .

١١ – الالتزام بالأسانيد [١] .

أما التفسير بالرأي أي الاجتهاد وإعمال العقل والنظر في فهم القرآن الكريم في ضوء المعرفة بلسان العرب وفي إطار ما ينبغي أن يتوافر للمفسر من أدوات وشروط معرفية وأخلاقية ، فقد اشترطوا في من يقوم بالتفسير بالرأي أن يكون ملماً بجملة علوم منها علوم اللغة العربية من النحو والصرف الاشتقاق واللغة وعلوم البلاغة والقراءات وأصول الدين وأصول الفقه ، وأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والأحاديث المبينة للقرآن والفقه ، وأخيراً علم الموهبة [٢] .

وقد أوجب العلماء على المفسر بالرأي أن يتجنب الهوى الذي يجر القرآن جراً لتأييد ما يهواه ويميل إليه من فكر ، وبهذا يصبح القرآن تابعاً لا متبوعاً ومحكوماً لا حاكماً ، وفرعاً لا أصلاً .

---

(١) انظر : التفسير والمفسرون ، د / محمد حسين الذهبي ، ص ٣٢٠ : ٣٢٣ ، مناهج البحث العلمي في العلوم والثقافة الإسلامية ، د / عبد المنعم صبحي أبو شعيشع ص ٤٦ .

(٢) كيف نتعامل مع القرآن الكريم ، د / يوسف القرضاوي ، ط مركز بحوث السنة والسيرة ص ١٩٥ .

وأن يتجنب التهجم على بيان مراد الله-تعالى-من كلامه ، بل عليه أن يستحضر سائر القرآن وما صح من الحديث ، وما جاء عن الصحابة من أسباب النزول ونحوها ، وما نبه عليه مفسرو السلف من حذف وإضمار وتقديم وتأخير ، ونحو ذلك مما يخرج بالألفاظ عن ظاهرها (١) لأن من قال في القرآن بمجرد رأيه فهو مخطئ وإن أصاب ، لأنه تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر ، لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهل في النار ، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر (٢) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٢) انظر : أصول التفسير لابن تيمية ، ص ١٠٨ .

المنهج الأمثل في تفسير القرآن الكريم :

قــال الدكتور القرضاوي : " إن المنهج الأمثل في تفسير القرآن ، يقــوم علــى أصــول راسخة وقواعد شامخة تتمثل في خطوات معلومة ، ومعالم مرسومة ، يجب مراعاتها والالتزام بها ، منها :

١ – الجمع بين الرواية والدراية :

أول المعالم في هذا المنهج هو : الجمع بين الرواية والدراية ، فإذا كــان فــي مــناهج التفسيرماعني بالرواية والأثر ، وفيها ما عني بالدراية والــنظر ، فــإن أقوم المناهج ما مزج بين الرواية والدراية ، وجمع بين صــحيح المــنقول وصــريح المعقول ، وألف بين تراث السلف ومعارف الخلف [١] .

٢ – تفسير القرآن بالقرآن :

وذلك أن القرآن الكريم يصدق بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [٢] فما أجمل في موضــع فُصِّــل في موضع آخر ، وما أُبهم في مكان بُين في آخر ، وما أطلــق في سورة أو آية قيد في أخرى ، وما جاء عاماً في سياق خصص فــي سياق آخر ، ولابد من ضم الآيات بعضها إلى بعض ، حتى يتكامل الفهم ، ويستبين المقصود من النص .

---

[١] كيف نتعامل مع القرآن العظيم ، ص ٢٠٥ .

[٢] سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

٣ – تفسير القرآن بالسنة :

قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير : " إن أصـــح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فســـر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر . فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن ، وموضحة له .

٤ – الانتفاع بتفسير الصحابة والتابعين :

الصـــحابة هـــم تلامـــيذ المدرسة المحمدية ، فيها تخرجوا ، ومنها اقتبســـوا ، وعنها تلقوا ، وعلى مائدتها تغذت عقولهم وقلوبهم ، فإذا صح عـــن الصحابة – رضي الله عنهم – تفسير معين أصغينا له أسماعنا ، لما امـــتازوا بـــه مـــن مشاهدة أسباب التنزيل وقرائن الأحوال ، ولاسيما إذا أجمعـــوا على هذا التفسير ، فإن إجماعهم قد يدل على أن لهذا الأمر أصلاً من السنة ، وإن لم يصرحوا به ، ويكفي في الإجماع هنا أن ينتشر الرأي بينهم ، ويشتهر عن جماعة منهم ، ولا يعرف له منهم مخالف .

٥ – الأخذ بمطلق اللغة :

أي يفسر اللفظ بحسب ما تدل عليه اللغة العربية واستعمالاتها ، وما يوافق قواعدها ، ويناسب بلاغة القرآن المعجز .

٦ – مراعاة السياق :

ومـــن الضـــوابط المهمة في حسن فهم القرآن ، وصحة تفسيره : مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة ، وسياق الجملة في موقعها من

الآيـــة ، فيجـــب أن تربط الآية بالسياق الذي وردت فيه ، ولا تقطع عما قبلها وما بعدها ، ثم تجر جراً ، لتفيد معنى ، أو تؤيد حكماً يقصده قاصد .

٧ – ملاحظة أسباب النزول :

ومـــن المعـــالم المهمـــة في فهم القرآن وتفسيره : ملاحظة أسباب الـــنزول . فمن المقرر لدى العلماء أن القرآن نزل على قسمين : قسم نزل ابتداء ، وهو معظم القرآن ، كما يبدو ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال ، وذلك خلال مدة نزول الوحي ، وهي ثلاث وعشرون سنة .

وهـــذا القسم الأخير هو الذي يبحث عن سبب نزوله ، لأن معرفة الأســـباب والملابســـات المحيطة بالنص ، تساعد على حسن فقهه ، وفهم المراد منه [١] .

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن العظيم ، ص ٢٣٢ .

الفصل الثالث

خصائص المنهج الدعوي

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : خصيصة تحقيق معنى العبودية الكاملة لله .

المبحث الثاني : خصيصة التكامل بين الإيمان والعمل .

المبحث الثالث : خصيصة الجمع بين الثبات والمرونة .

المبحث الأول

أحدها : تحقيق العبودية الكاملة لله

المسلم مطالب في كل أقواله وأفعاله بأن يؤمن إيماناً لا يخالطه ريب بأن عليه أن يتوجه بكل جهد يبذله أن يكون مخلصاً لخالقه وذلك لكي يحقق معنى العبودية الكاملة لله ، ومن أبرز صفات منهج العبادة في الإسلام أن يفهم المسلم أن العبادة " ليست قاصرة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج ... وإنما هي معنى أعمق من ذلك بكثير .. إنها العبودية لله وحده ، والتلقي من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كله .. ثم هي الصلة الدائمة بالله في هذا كله .

الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر الشعائر التعبدية ، إن هي إلا مفاتيح .. مجرد مفاتيح للعبادة ، أو " محطات " يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد ، ولكن الطريق كله عبادة ، وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل ، أو فكر أو شعور فهو كذلك عبادة .. مادامت وجهته إلى الله . ما دام قد شهد حقاً – لا باللسان – أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقام حياته كلها وواقعه كله على هذا الأساس .

والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة .. وقيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة ، قيمتها أن تكون خطة سلوك ، وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور ، قائمة على منهج واضح (١) .

---

(١) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، ص ٣٤ ، الطبعة الحادية عشر ، طبعة دار الشروق .

المناهج السائدة فيما يتعلق بعبادة الله قبل الإسلام :

وقبل أن نبين ملامح منهج العبودية الكاملة لله أرى من المناسب ذكر المناهج السائدة فيما يتعلق بعبادة الله تفريطاً وإفراطاً وذلك من خلال الحديث عن المنهج الذي يمثله اليهود والنصارى .

المنهج الأول : تفريط اليهود :

ويمثله اليهود في تفريطهم وجفائهم ، فلو تأملنا التوراة – بعد تحريفها – لوجدنا تقديس المادة غلب على بنودها ، فلا تقرأ في أسفار التوراة ذكراً حقيقياً للآخرة ، حتى ما ورد فيها من وعد ووعيد فإنما هو متعلق بالدنيا فقط ، فلا يعمل الشخص إلا لتحقيق كسب عاجل ، أو خوفاً من عقوبة عاجلة ، بل طبقوا ماديتهم حتى في معرفة الله فقالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم لنبيهم موسى (عليه السلام) : ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (١) .

ووفقاً لهذا التصور المادي الدنيوي أغرق هؤلاء في تقديس المحسوسات ، واتخذوها طريقاً للرقي ، وأصبحت القيم المادية هي محور الحياة ، وتحول الإنسان في نظر هؤلاء إلى آلة تتحرك ، ومعدة تهضم ، وكائن يلهو ، وقد وصفهم القرآن الكريم ، وبين مدى تعلقهم بالحياة الدنيا وحرصهم عليها فقال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ (٢) أي حياة ، حتى لو كانت حياة البهائم ونحوها .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٥٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٩٦ .

وذلك لأنهم يخشون الموت ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [١] ، لأنهم ربطوا غايتهم بالدنـــيا ، فعلمهم للدنيا وعبادتهم لمآرب دنيوية ، فإذا انتهت الدنيا فقد فاته كـــل شيء فهم بهذا أغرقوا في الشهوات ، وعبدوا أنفسهم للماديات ، فهم كمشركي قريش الذين قالوا : ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [٢]. وهذا المنهج يمثل التفريط في أسوأ صوره وحالاته ولذلك أمـــرنا الله أن نســـتعيذ مـــنه في كل صلاة ، ونسأله أن يجنبنا إياه ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [٣] .

المنهج الثاني : إفراط النصارى :

وهـــو المنهج القائم على الروحانيات ، وذلك بإعلائها وتمجيدها ، والإغراق في مفهوم العبادة والرهبنة ، ويمثل هذا المنهج النصارى – بعد أن ضـــلوا الطـــريق – وهـــو منهج الإفراط والغلو وابتداع رهبانية قاسية علـــى الـــنفس ، تحرم الزواج ، وتكبت الغرائز ، وتمنع كل أنواع الزينة وطيبات الرزق ، وترى ذلك رجساً من عمل الشيطان وبالغوا في العبادة ، وأخرجوها عن كيفيتها ، وعن المراد منها ، بترهات وأباطيل ، وأصبحت رهبانـــية غالـــية مشـــوهة معذبة للأجساد ابتدعوها من أنفسهم ، بلا حجة ولا برهان[٤] ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ

---

[١] سورة البقرة الآية : ٩٥ .

[٢] سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .

[٣] سورة الفاتحة الآية : ٧ .

[٤] كـــان هـــذا حال المسيحية في قرونها الأولى ولكنها تحولت على يد اليهود من منهج الإفراط إلى منهج التفريط في كل شيء لدى بعض الطوائف المسيحية فعبدوا الدنيا =

فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (١) ، ولذلك كانت حالهم ومآلهم في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ (٢) . وهذا المنهج يمثل الإفراط والغلو ، وهو الوجه الثاني من وجـوه الانحـراف عن الصراط المستقيم ، ولذلك أمرنا بأن نسأل الله أن يجنبنا إياه (٣) بقولنا في الفاتحة " ولا الضالين " .

المنهج النبوي يرفض الغلو في العبادة :

لمـا كان هذا حال اليهود والنصارى بعد أن حرفوا ما نُزل عليهم فقـد عـاش رسول الله (ﷺ) وأصحابه الكرام عاملين بمنهج الوحي على أفضـل وجـه وأعدله ، وقدموا لنا صورة مثالية فريدة في تنفيذ منهج الله بـتوازنه واعتداله ووسطيته ، وشموله وواقعيته وكماله . ورفض رسول الله (ﷺ) الغلو في المنهج أو التشدد في الدين وقوم عوج بعض من وقع في الغلو أو التشدد ، وأرشدهم إلى الاعتدال والتيسير ، وهذه بعض النماذج .

النماذج الدالة على رفض الغلو في العبادة

النموذج الأول : الثلاثة الرهط :

عن أنس (ﷺ) قال : " جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي (ﷺ) يسألون عن عبادة النبي (ﷺ) ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأيـن

- كالـيهود وخـرجوا على الآداب والأخلاق حتى أصبحت عبادة الجنس لديهم لا تقل عن عبادة الدنيا .

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الغاشية الآية : ١ - ٤ .

(٣) انظر : الوسطية في القرآن الكريم ، للدكتور / محمد الصلابي ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

نحن من النبي (ﷺ) وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أمـا أنـا فأقوم الليل أبداً . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخـر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله -عليه الصلاة والسـلام - فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ .. أما والله إني لأخشاكم لله وأتقـاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " [١] .

فهـذا موقـف من مواقف الغلو يجلي لنا سبب هذه النزعة ، وهي الرغبة الصادقة في التزود من الخير دفعتهم للسؤال عن أسلوب النبي (ﷺ) في عبادته ، فلما علموا ، رأوا أن ذلك قليل فقالوا ما قالوا .

ولكـن الرسـول (ﷺ) لم يقر هذا الاتجاه فبادر بعلاجه ، وصحح نظـرتهم لتحصيل خشية الله وتقواه ، فبين أنها ليست بالتضلع من أعمال والـتفريط فـي أخرى ، ولكنها تحصل بالموازنة بين جميع مطالب الله ، وهذا هو عين الوسطية والحكمة والاستقامة والاعتدال والعدل [٢] .

النموذج الثاني : عبد الله بن عمرو بن العاص :

قال عبد الله بن عمرو : قال لي النبي(ﷺ)" ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم الـنهار ؟ قلت : إني أفعل ذلك ، قال : فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عينك ؟ ونفهت نفسك ، وإن لنفسك حقاً ولأهلك حقاً فصم وأفطر ، وقم ونم " [٣]

---

(١) صـحيح الـبخاري ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح (٦ / ١٤٢) حديث رقم ٥٠٦٣ .

(٢) انظر : ظاهرة الغلو في الدين ، ص ٨٥ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب ما يكره من ترك قيام الليل ، ٢٠ رقم ١١٥٣ .

هـذا موقـف لشاب صالح تقي ، أشرب قلبه حب الله وذاق حلاوة الوقوف بين يديه ، فأسهر ليله ، وأظمأ نهاره وزهد في الدنيا ولذاتها وبالغ في ذلك ، وكان السبب في ذلك إرادة الخير ، ولكن رسول الله (ﷺ) كانت عيـنه سـاهرة اهتماماً بشؤون أمته فلم يقره على هذا المسلك برمته ، بل هذب هذه النزعة حتى تؤتي ثمارها، كل ذلك بأسلوب حكيم ، فبين له(ﷺ) أن الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية لا تتحمل ذلك دوماً ، نعم قد تتحمله فـترة ولكـن تحدث بعد ذلك انتكاسة ، ولنا في تاريخ الرهبان عبرة وفي هذه القصة أيضاً ، وبيّن (ﷺ) أن المبالغة في العبادة يصحبها غالباً تقصير في حقوق أخرى كثيرة [١] .

النموذج الثالث : أبو إسرائيل [٢] :

عـن ابـن عباس قال : بينما النبي (ﷺ) يخطب إذا هو برجل قائم فسـأل عـنه فقـالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يـتكلم ويصـوم ، فقال النبي (ﷺ) : " مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه " [٣] . فهذا يدل على سماحة ويسر الشريعة .

---

[١] ظاهرة الغلو في الدين ، ص ٨٥ .

[٢] صـحابي مخـتلف في اسمه فقيل : يسير ، وقيل قشير ، وقيل قيصر ، ومختلف في نسبته فقيل أنصاري ، وقيل قرشي ، وقيل عامري، وليس في الصحابة من يشاركه في اسمه أو كنيـته ، وليس له ذكر إلا في هذا الحديث . انظر : الإصابة (/ ٦٧) ، تجريد أسماء الصحابة (٢ / ١٤٧) .

[٣] صـحيح البخاري ، كتاب الإيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك (٧ / ٢٩٧) رقم الحديث ٦٧٠٤ .

النموذج الرابع : أبو الدرداء :

آخى رسول الله (ﷺ) بين سلمان[١] وبين أبي الدرداء" فزار سلمان أبـا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة [٢] فقال : ما شأنك متبذلة ؟ فقالت : إن أخـاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا . قال : فلما جاء أبو الدرداء قرب إليه طعاماً فقال : كل فإني صائم قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، قال: فـأكل ، فلمـا كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان : نم فنام ، ثـم ذهب يقوم فقال له : نم فنام ، فلما كان عند الصبح قال له سلمان : قم الآن فقامـا فصـليا ، فقـال : إن لنفسك عليك حقاً ، ولربك عليك حقاً ، ولضيفك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه ، فأتيا النبي (ﷺ) فذكرا ذلك ، فقال له : " صدق سلمان " [٣] .

فهذه ثمرة من ثمرات الأخوة الصادقة التي غرسها الرسول(ﷺ) في نفوس أصحابه ، وهذه الأخوة عليها معول كبير في تقويم مسلك الغلو ، إذ هي تنشئ التفاهم والثقة وهما عنصران ضروريان في العلاج ، وكـــان

---

(١) هـو الصـحابي المعمـر أبو عبد الله سلمان الفارسي ويقال له سلمان بن الإسلام ، وسـلمان الخـير ، سـمع النبي(ﷺ)، فأسلم وكان رقيقاً ، أول مشاهده الخندق ، ثم بقية المشاهد ، وفتوح العراق وولي المدائن ، اتفق على أنه عاش مائتين وخمسين سنة ، توفي سنة ٣٦ هـ . انظر : الإصابة (٢ / ٦٠) ، وسير أعلام النبلاء (١ / ٥٥) .

(٢) التـبذل : ترك التزيين والتهيؤ بالهيئة الجميلة . النهاية (١ / ١١١) ، كان موقف سلمان من أم الدرداء قبل أن ينزل الأمر بالحجاب .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب صنع الطعام والتكلف للضيف (٧ / ١٣٦) رقم ٦١٣٧ .

علاج سلمان فيه حزم وحكمة . فأبى أن يأكل إلا إذا أكل معه أبو الدرداء ولما أرخى الليل سدوله ، سلك طريقة عملية متدرجة في علاج الجموح وضبطه ، فأمره بالنوم في أوله ثم قام معه في آخره وصليا جميعاً .

وهكذا نجح العلاج عند توفر الأخوة ، والحزم ، والحكمة ، ولين الطرف الآخر [١] .

النموذج الخامس :

عن عائشة قالت : دخل عليَّ رسول الله (ﷺ) وعندي امرأة فقال : من هذه ؟ فقلت فلانة لا تنام من الليل ، فذكرت من صلاتها قال " عليكم من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا " وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه "[٢] وهذا توجيه نبوي كريم نحو الاعتدال والتوسط .

النموذج السادس :

عن أنس ، قال : دخل رسول الله (ﷺ) المسجد وحبل ممدود بين ساريتين ، فقال : " ما هذا ؟ قالوا : لزينب [٣] تصلي ، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال : حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر فليقعد " [٤] .

---

[١] انظر : ظاهرة الغلو في الدين ، ص ٨٩ .

[٢] صحيح البخاري ، كتاب التهجد ، باب ما يكره من التشديد من العبادة (٢ / ١٦) رقم ١١٥١ .

[٣] هي زينب بنت النبي ﷺ .

[٤] صحيح البخاري ، كتاب التهجد ، باب ما يكره من التشديد في العبادة (٢ / ١٦) رقم ١١٥٠ .

فهـذا الحديـث يدل على أن النساء لم يكن أقل حرصاً من الرجال على التزود من الخير ، والتنافس في أعمال البر ، وقد تجلى ذلك في هذه الـنزعة الجامحـة نحـو العبادة ، ولكن الرسول (ﷺ) لم يقر هذا الجموح الضار فعمد إلى الزجر عنه ، وأمر بالوسط النافع ولنستمع الآن إلى تعليق الإمـام الـنووي النافع حول هذين الحديثين فيقول : " فيه دليل على الحث على الاقتصاد في العبادة واجتناب التعمق ، وليس الحديث مختصاً بالصلاة بـل هو عام في جميع أعمال البر ، وفي الحديث كمال شفقته (ﷺ) ورأفته بأمته لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم ، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر فتكون النفس أنشط ، والقلب منشرحاً فتتم العبادة ، بخلاف من تعـاطى من العبادة ما يشق عليه فإنه بصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم .

وقـد ذم الله-سبحانه وتعالى-من اعتاد عبادة ثم فرط فقال تعالـى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (١) ، وقـد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص على تركه قبول رخصة رسول الله (ﷺ) في تخفيف العبادة ومجانبة التشديد " (٢) .

النموذج السابع : الزهد الغالي :

وقد ظهرت عند بعض الصحابة نزعة شديدة إلى العبادة والغلو فيها والانقطاع لها وحرموا على أنفسهم طيبات أحلت لهم فأنزل الله – سبحانه-

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٧ .

(٢) مسلم شرح النووي ، كتاب صلاة المسافر باب فضيلة العمل الدائم (٦ / ٧١) .

آيات تنكر عليهم هذا السبيل وتردهم إلى طريق الوسطية والاعتدال .

ذكـــر الإمـــام الطبري (أن مجموعة من الصحابة منهم عثمان بن مظعـــون [١] وعلـــي بـــن أبي طالب ، وابن مسعود ، تبتلوا فجلسوا في البـــيوت واعـــتزلوا النســـاء ، ولبســـوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللـــباس إلا مـــا يـــأكل ويلـــبس أهل السياحة من بني إسرائيل ، وهموا بالخصـــاء ، وأجمعـــوا لقيـــام الليل ، وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يَـــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [٢] .

يقـــول : لا تستنوا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما اهتموا بـــه مـــن الخصـــاء فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : " إن لأنفسكم حقاً ، وإن لأعينكم حقاً ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا فليس منا من ترك سنتنا ، فقالوا : اللهم أسلمنا واتبعنا ما أنزلت " [٣] .

---

[١] هـــو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي ، أبو السائب من سادة المهاجرين ومـــن أولياء الله المتقين الذين فازوا بوفاتهم في حياة نبيهم فصلى عليهم ، وكان أول من دفن بالبقيع .
انظر : سير أعلام النبلاء (١ / ١٥٣) .

[٢] سورة المائدة ، الآية : ٨٧ .

[٣] تفسير الطبري (٧ / ١١) .

عبودية الله تعالى في منهج الدعوة الإسلامية تشمل كل أفعال الإنسان

إن عبودية الله تشمل كل أفعال الإنسان بشرط أن تتضمن معنى الخضوع والحب لله ، يقول ابن تيمية : " والإله هو المعبود الذي يستحق غاية الحب والعبودية والإجلال والإكرام والخوف والرجاء " [١] .

وينص ابن القيم على أن " العبادة تجمع أصلين غاية الحب بغاية الذل والخضوع [٢] ومن ثم تتضمن أعمال الإنسان كلها القلبية والعلمية الفردية والجماعية .

وبهذا يصحح منهج الدعوة الإسلامية ما ساد بين الناس من مفاهيم خاطئة للعبادة ، صرفت عقولهم وقلوبهم وأعمالهم عن هذه الوظيفة التشريفية التي خلق الله الإنسان من أجلها ، وسخر له كل شيء في نفسه وفي الكون من حوله ليقوم بها وفق أمر خالقه .

وعندما نتأمل القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار وأوامر ونواهي ووعد ووعيد نجد أن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان دائرة رحبة واسعة ، لأنها تشمل شؤون الإنسان كلها وتستوعب حياته جميعاً ، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله [٣] .

وقد لخص هذا المعنى الشامل للعبادة شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)

---

[١] انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨ / ٣٥) .

[٢] مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٧٤) .

[٣] انظر : العبادة في الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ، ص ٥٣ .

حين قال : (العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله ....) [١] .

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله ، سواء كان ذلك في العبادات المحضة ، أو في المعاملات المشروعة ، أو في العادات التي طُبع الإنسان على فعلها ، وهذا لا يختلف ولا يتناقض في أن الأصل في العبادات المحضة المنع حتى يرد ما يدل على مشروعيته ، وأن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها ، وذلك مبني على (أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان : عبادات يصلح بها دينه ، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم .

فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله ، أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع .

وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه

---

[١] مجموع الفتاوى (١٠ / ١٥٠) .

والأصـــل فـــيها عـــدم الحظر ، فلا يحظر منها إلا ما حظره الله-سبحانه وتعالى-وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله ، والعبادة لابد أن يكون العبد مأموراً بها فما لم يثبت أنه مأمور به كيف يحكم عليه بأنه عبادة ؟!

ومـــا لـــم يثبت من العبادات أنه منهي عنه ، كيف يحكم عليه أنه محظور ؟ والعادات الأصل فيها العفو ، فلا يحظر منها إلا ما حرم) [١]

وهـــذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرج شيئاً من أفعال الإنسان العاديـــة مـــن دائرة العبادة لله ، ولكن ذلك يختلف في درجته ما بين عبادة محضـــة وعادة مشوبة بالعبادة ، وعادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة ، لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة أو المندوبة أو تكميلاً لشيء منها [٢] .

وقال النووي في شرحه لحديث " وفي بضع أحدكم صدقة " [٣] : (وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة) [٤]

ومن ذلك يتضح : (أن الدين كله داخل في العبادة ، والدين منهج الله جـــاء ليسع الحياة كلها ، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضـــاء الحاجـــة إلـــى بناء الدولة وسياسة الحكم وسياسة المال وشئون المعاملات والعقوبات وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩ / ١١٦ - ١١٧) .

(٢) انظر : حقيقة البدعة وأحكامها للبغدادي (١ / ١٩) .

(٣) رواه مسـلم ، كـتاب الـزكاة بـاب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١ / ٦٩٧) .

(٤) شرح النووي مع مسلم ، كتاب الزكاة باب كل نوع من المعروف صدقة (٧ / ٩٢).

إن الشعائر التعبدية من صلاة ، وصوم ، وزكاة لها أهميتها ومكانتها ، ولكنها ليست العبادة كلها ، بل هي جزء من العبادة التي يريدها الله – سبحانه وتعالى – .

إن مقتضى العبادة المطالب بها المسلم أن يجعل أقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، يفعل ذلك طاعة لله واستسلاماً لأمره [١] .

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة ، من الكتاب والسنة وفعل الصحابة – رضوان الله عليهم – فمن القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٢]، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٣] ، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [٤]، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [٥] .

ومن السنة أحاديث كثيرة بعضها في عموم العادات بدون تخصيص وبعضها الآخر في أفراد السلوك العادي ، وفي هذا الأخير دليل وتنبيه على المعنى العام المقصود إثباته هنا ، فمن ذلك :

---

[١] مقاصد المكلفين للدكتور عمر الأشقر ، ص ٤٦ – ٤٧ .
[٢] سورة الذاريات الآية : ٥٦ .
[٣] سورة التوبة الآية : ٣١ .
[٤] سورة الأنعام الآيتان : ١٦٢ – ١٦٣ .
[٥] سورة البينة الآية : ٥ .

قولــه (ﷺ) : " إن المســلم إذا أنفق على أهله نفقة ، وهو يحتسبها كانت له صدقة " (١) .

وقوله (ﷺ) : " كل ما صنعت إلى أهلك فهو صدقة عليهم " (٢) .

وقولــه (ﷺ) : " دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك " (٣) .

وقال (ﷺ): " كل سلامي من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها ، أو تــرفع له مــتاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تخطوها إلــى الصـــلاة صـــدقة ، ودلٌ الطريق صَدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة " (٤) .

وقولــه (ﷺ): " دخلت امرأة النار في هرة ، ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت " (٥) .

وأما الاستدلال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعــل

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان باب ما جاء أن الأعمال بالنية (١ / ٢٤) رقم : ٥٥

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٣ / ٢٢) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب النفقة على العيال والمملوك (١ / ١٩١) .

(٤) أخــرجه الــبخاري كتاب الصلح ، باب فضل الإصلاح بين الناس (٣ / ٢٢٧) رقم : ٢٧٠٧ .

(٥) أخــرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب خمس من الدواب فواسق ، الحديث رقم ٣٣١٨ .

السـلف وفهمهـم ففيما رواه البخاري في صحيحه عن أبي بردة [١] في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال : أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لي ، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي " [٢]

وفي كلام معاذ (ﷺ) دليل أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية [٣] .

---

(١) هـو التابعـي الـثقة أبـو بردة حارث ، وقيل عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشـعري ، ثقة كثير الحديث ، تولى قضاء الكوفة للحجاج ، ثم عزله بأخيه أبي بكر ، ثم طلبه يزيد بن المهلب على بعض أمور الولاية ، فامتنع وأصر حتى أعفاه منها ، اختلف في وفاته فقيل سنة ١٠٣هـ ، وقيل ١٠٧هـ . انظر : سير أعلام النبلاء (٤ / ٣٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (٥ / ١٥٦) رقم : ٤٣٤٢ .

(٣) الوسطية في القرآن الكريم ، الدكتور / علي محمد الصلابي ، دار النفائس ص ٥١٦ .

ثالثاً : ما يتطلبه منهج الدعوة في قبول العبادة :

الناظر في المنهج الدعوي لقبول الأعمال العبادية يجد أنه يتطلب توفر أمرين :

الأمر الأول : العبادة لا تقبل إلا بتحقق الإخلاص لله :

الإخلاص في منهج الدعوة متعلق بالإرادة ، والقصد ، والنية . والنية تقع في كلام العلماء بمعنيين كما قرر ذلك ابن رجب فقال : أحدهما : تمييز العبادات بعضها عن بعض ، كتمييز صلاة الظهر عن صلاة العصر مثلاً .. إلى أن قال : والمعنى الثاني : بمعنى تمييز المقصود بالعمل وهل هو لله وحده لا شريك له ، أم لله وغيره ، وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم وفي كلامهم على الإخلاص وتوابعه ، وهي التي توجد كثيراً في كلام السلف [١] .

أدلة الإخلاص :

بيّن القرآن الكريم أن الإخلاص شرط من شروط العبادة ، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [٢] وقوله (ﷻ):﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ [٣] .

---

(١) انظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ص ٨ الطبعة الثالثة ١٩٩١م .

(٢) سورة الزمر الآيات : ٢ – ٣ .

(٣) سورة الزمر الآيات : ١١ – ١٤ .

وقولـــه سبحانه : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [١] .

فهذه الآيات تدل دلالة واضحة على إخلاص القصد لله تعالى وتوفر النية لقبول العمل .

ولذلـــك جاءت الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد أن النية والإخلاص شرط أساسي لقبول الأعمال .

عـــن عمـــر بـــن الخطاب (ﷺ) قال : قال رسول الله (ﷺ): " إنما الأعمـــال بالنـــيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورســـوله فهجـــرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه " [٢] .

قال الشوكاني[٣] في تعليقه على هذا الحديث: (.. حصول الأعمال وثـــبوتها لا يكون إلا بنية ، فلا حصول أو لا ثبوت لما ليس كذلك ، فكل طاعـــة من الطاعات ، وعبادة من العبادات إذا لم تصدر عن إخلاص نية وحسن طوية ، لا اعتداد بها ولا التفات إليها ، بل هي إن لم تكن معصية فأقل الأحوال أن تكون من أعمال العبث واللعب) [٤] .

---

[١] سورة الأعراف الآية : ٢٩ .

[٢] رواه البخاري ، كتاب بدء الوحي (١ / ٢) .

[٣] هـــو محمـــد بـــن علي بن محمد الشوكاني ، فقيه مفسر ترك المذهب الزيدي ونصر السنة ، توفي سنة ١٢٥٠هـــ .

[٤] أدب الطالب للشوكاني ، ص ٥ .

ومـــنهج الدعوة إلى الله يرفض أي عمل – مهما كان– إذا لم يكن فـــيه إخلاص القصد لله ، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة قال : سمعت النبي (ﷺ) يقول : " إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه ، رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشـــهدت ، قال كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ ، فقد قيل ، ثم أمر بـــه فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتي به ، فعرفه نعمته فعرفها ، قال : فما عملت ؟ قال : تعلمت العلـــم وعلمـــته ، وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عـــالم وقرأت القرآن ليقال قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حـــتى ألقـــي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأوتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال كذبت ولكنك فعلت ليقال جواد ، وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار " (١)

الأمر الثاني : العبادة لا تقبل إلا إذا كانت موافقة للشرع :

الأمر الثاني في قبول العبادة أن تكون موافقة للشرع ؛ لأن كل عمل لا يوافـــق الشرع فهو مردود على صاحبه مهما كان فاعله ، ولذلك جاءت آيـــات كثيرة تؤكد موافقة العمل للشرع أساس القبول من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

(١) صحيح الإمام مسلم ، كتاب الإمارة باب من قاتل للرياء والسمعة (٢ / ١٥١٣) .

سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٣) .

فهذه الآيات – وغيرها كثير– توضح أن العمل لا يقبل إلا إذا كان موافقاً للشرع ، ومن ثم أمرنا رسول الله (ﷺ)أن نأخذ عنه المناسك والعبادة فقال (ﷺ) : " وصلوا كما رأيتموني أصلي " (٤) .

وقال (ﷺ) أيضاً : " خذوا عني مناسككم " .

وحذرنا رسول الله (ﷺ)من الابتداع في الدين فقال : " من أحدث في أمرنا ما ليس منه ، فهو رد " (٥) .

وقـد فهم السلف الصالح أن من شروط قبول العمل موافقته للشرع ، فعن مطرف بن عبد الله يقول : سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده الزائغون في الديـن يقـول : قـال عمـر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) " سن رسول الله (ﷺ) وولاة الأمـر مـن بعده سنناً ، الآخذ بها اتباع لكتاب الله(ﷻ)، واستكمال لطاعة الله (ﷻ)، وقوة على دين الله-تبارك وتعالى-ليس لأحد من الخلـق

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٥٣ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٥٣

(٣) سورة الحشر الآية : ٧

(٤) صحيح الإمام البخاري ك الأذان ب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة (٥٩٥).

(٥) رواه مسلم ، كتاب الأقضية باب نقد الأحكام الباطلة (٢ / ١٣٤٣) .

تغييرها ، ولا تبديلها ، ولا النظر في شيء خالفها من اهتدى بها فهو مهتد ومـــن استنصــــر بها فهو منصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ، ولاه الله-تعالى-ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً " [١] .

ويقــول ابن تيمية : " دين الإسلام مبني على أصلين : أن نعبد الله وحــده لا شـــريك له ، وأن نعبده بما شرعه من الدين ، وهو ما أمرت به الرسل [٢] .

---

[١] راجـــع : الشـــريعة للآجـــري ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية بيروت ص ٦٥ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

[٢] انظر : مجموع الفتاوى (١ / ١٨٩) .

المبحث الثاني

خصيصة التكامل بين الإيمان والعمل

المنهج الدعوي يرفض التفريق بين الإيمان والعمل ، بل يقوم على الـتكامل بين الإيمان والعمل وذلك لأنه منهج خالد وضعه الله للحياة كلها ليس لفترة منها دون فترة ، ولا لفئة من الناس دون فئة ، ولا لحزب دون حـزب ، ولا لشعب بعينه ، ولا لأمة بذاتها ، وإنما وضعه الله – تعالى – للبشرية كلها ، وهي عندما تخضع له ، وتعمل به ، ستجد الأنس ، وتحقق السعادة ، وتشعر بالطمأنينة والسكينة ، لأنه يُرضي كل نوازعها، ويتجاوب مع جميع مطامحها ، ويلبي جميع احتياجاتها .

لقـد اسـتطاع هذا المنهج الدعوي أن يحكم الحياة الإسلامية وأن يعطـيها من غير حدود في جميع المجالات تشريعياً ، وإدارياً ، وسياسياً واجتماعـياً ، وعلمـياً ، وأدبياً ... دون أن تظهر فيها أية تناقضات ، أو ثغرات ، في حين أن دساتير البشر تتعارض ، وتتضارب ويلحقها النقص ويظهر فيها الخلل [١] .

إن المـتأمل في تكامل المنهج الدعوي يجد أنه غيث مبارك هطل علـى أرض البشـرية الجدبـاء ، فأحيا مواتها ، وأنبت فيها كل رائع من الـزروع والـثمار ، وهكذا تحولت الحياة بمنهج الله إلى بستان نضير فيه من النبات أحسنه وأزكاه ، ومن الثمر أطيبه وأحلاه ، كما استطاع هـذا

---

(١) انظـر : قـيم حضارية ، توفيق محمد السبع ، منشورات مجمع البحوث الإسلامية ، ص ١٦٨ .

المـــنهج أن يصـــنع قلب الأمة ووجدانها وأخلاقها ، فأنشأ مجتمعاً متناسقاً تسوده نغمة واحدة لا نشاز فيها ولا اختلاف ، فيوم أن تعرضت فيه امرأة واحدة لحادثة سوء من أحد اليهود ، ونادت : وا إسلاماه ، هبت الأمة كلها لنجدتها بقيادة رسول الله (ﷺ) (١)، وعلى إثر ذلك أخرج اليهود من المدينة بـــلا عـــودة إلى قيام الساعة . ويوم أن تعرضت امرأة أخرى وقالـــت : وا معتصماه ، وسمع الخليفة باستغاثتها هبت الأمة وقتها لنجدتها .

والسبب في ذلك هذا المنهج الذي ثبت العقيدة في وجدان المؤمنين ثم عمد إلى أرواحهم فطهرها من كل دنس وجردها من كل ضعف .

إن الـــتكامل في المنهج الدعوي يعني انسجاماً بين الروح والجسد بيـــن العقـــيدة والعمل ، بين القيادة والعبادة ، بين المجتمع والمسجد ، بين العلـــم والدين ، بين الأخلاق والسلوك ، بين الدنيا والآخرة ، بين النظرية والتطبيق ، بين السلم والحرب ، كما يعني تكاملاً في الحياة من حيث الفهم السياســـي ، والوعـــي الاجتماعي ، والعلاقات الدولية ، وعلاقات الأفراد ببعضـــها علـــى صـــعيد المجتمع وفي رحاب الأسرة ، كما يوضح علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبالكون من حوله .

بهـــذا المنهج الإلهي الفريد انطلق رسول الله (ﷺ) وأصحابه فبنوا مجـــتمعاً تميز بالخلق وتحرر بالعقيدة ، وساد بالإيمان وخاضوا به معارك الحـــياة . خاضـــوا معارك ضد التخلف فتخرج من بين جنباته علماء أفذاذ كانوا أعجوبة فريدة من حيث الزهد ،والعبادة ،والحكم ، والقضاء ،والقيادة

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٤٧ ، ٤٨ ، والكامل في التاريخ (٢ / ١٣٨) وعيون الأثر (١ / ٢٩٥) ومغازي الواقدي (١ / ١٧٦) .

والعطاء ، وأشاعوا العلم في كل مكان . وخاضوا معارك عسكرية فحاربوا وانتصروا وفتحوا الدنيا وأسسوا أمجد الحضارات وكل ذلك تم بلا قهر ولا تسلط ولا استبداد . وخاضوا معارك اقتصادية : فزرعوا الأرض ، ووزعوا الماء ، وحاربوا الظلم والاستغلال ، وكافحوا الربا والاحتكار .

تكامل المنهج بين النزعة الفردية والجماعية :

في ضوء هذا المنهج الإلهي نستطيع أن نلمح الأساس السليم لبناء المجتمع القوي وذلك من خلال التكامل بين ما يحبه الفرد وما يحتاجه المجتمع ، ونسوق في التدليل على هذا التكامل العجيب هذا الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري بسنده عن النعمان بن بشير عن النبي -عليه الصلاة والسلام-قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا !! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " (١).

إن الناظر في هذا الحديث الشريف يرى أنه يوضح لنا هذا التكامل من خلال ما يلي :

[١] أنه يرسم الإطار السليم الذي ينبغي أن تتحرك فيه حرية الأفراد . فإذا تجاوزوا ذلك هلكوا ، وأهلكوا المجتمع كله ، لأن مجال الحرية الفردية ألا تؤذي أحداً ، وألا تضر بمصالح الآخرين في إطار

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، كتاب الشركة ، باب هل يقرع في القسمة والاستهام (٥ / ١٣٢) حديث رقم ٢٤٩٣ .

الديـــن والخلـــق ، فمـــن حق أي فرد أن يتكلم بحرية ما لم يجرح شعور الآخريـــن ، وأن يفعـــل ما يحب ما لم يسيء إلى المجتمع ، وما لم يخرج على الفضيلة . فإذا تجاوز ذلك فعلى الجماعة أن تضرب على يديه وذلك لمصلحته هو ولمصلحة المجتمع نفسه لا أن تتركه يعربد وينزو كما تفعل أمـــريكا اليوم ، بل العالم الغربي كله ، ومهما كان المبرر فلابد من قمعه لـــيرتدع ، فـــإن أهملت الجماعة واجبها في تأديب المارق ، فلتنتظر سوء العاقبة .

[٢] أن المـــتأمل في هذا الحديث الذي كامل بين النزعة الفردية والجماعـــية يجد أن الرسول (ﷺ) عالج مشكلة من أصعب المشكلات التي مـــازال العـــالم مـــتورطاً فـــيها إلى اليوم ، وقد عالجها من خلال أسلوب التصـــوير الحســـي المألوف بذكر السفينة وركابها ، فالأمة في مجموعها الكبير شُبهت بقوم مختلفين ركبوا سفينة ، وأن القادة – الآمرين بالمعروف والناهيـــن عن المنكر – فهم في أعلى السفينة لأن هذا هو وضعهم ، إنهم في الحياة والواقع قدوة ومن ثم فهم في أعلى السفينة .

وأمـــا الأفراد العاديين – الواقعين في المآثم – فهم في أسفل السفينة لأن هذا هو وضعهم في الحياة . وأحكام الشريعة التي تتجه بالمجتمع إلى الخير شـــبهت بالســـفينة التـــي تتجه بالراكبين إلى شاطئ السلام ، كما شبه من يقومون على حدود الله – وهم الحكام – ومن يقعون فيها – وهم العامة – بهيـــئة قوم ركبوا سفينة بعضهم أصاب أعلاها وبعضهم أصاب أسفلها بعد أن اســـتهموا على قسمتها ، كما شبه الحديث مسئولية قادة الأمة في الدفاع عنها بمسئولية من ركبوا أعلى السفينة في الدفاع عمن ركبوا أسفلها .

[٣] بيّن هذا الحديث أن الذين يؤثرون الطريق الأسهل والأخطر في نفس الوقت ويريدون أن يستعملوا حريتهم الفردية بأن يخرقوا خرقاً في نصيبهم فيشربوا دون إزعاج أحد أنهم بعملهم هذا سيصيبون الكل في مقتل بغـــرق السفينة ، ومن ثم فاستعمال الحرية دون تبصر بمدى الضرر الذي ســـينجم عـــنها أمـــر مرفوض ، فكذلك شرع الله كله متوقف على نشاط القائمين على الأمر في تنفيذه وتطبيقه على الجميع دون تمييز أو تفريق .

[٤] بيـــن هذا الحديث أن السفهاء والدهماء والسوقة والغوغائيين في المجتمعات كلها يبررون فجورهم وانحرافهم بأنهم لا يؤذون إلا أنفسهم فما شأن غيرهم بهم ؟ إنها حرية أو كما قالوا " نخرق في نصيبنا " فكذلك يقـــول الدهماء : " إننا نسيء إلى أنفسنا وإنها حريتنا الشخصية .. " ، ولا يفهمون أن مستقبل هذه الأمة متوقف على درء الفساد عن المجتمع ومعاقبة المنحرفيـــن كما أن سلامة السفينة متوقف على قوة الجماعة العليا في منع الذين يحاولون الخرق والذين يظنون جهلاً أن المكان الأسفل لهم وحدهم.

[٥] بيـــن هـــذا الحديث الشريف أمراً في غاية الأهمية وهو أن الإسلام قد جعل للحرية الفردية إطاراً تتحرك داخله ولا تتجاوزه ، كما بين مســـئولية الجماعـــة القيادية في تنفيذ وتطبيق هذه الحرية ، وبهذا يختلف الإسلام عن جميع المذاهب .

فالحـــرية في الحضارة الغربية تعني أن يكون الإنسان قادراً على فعل ما يريد ، لا مقيداً ، ولا مسجوناً ، ولا مقيداً بالقوانين ، كما تعني أن يكون الإنسان غير مرتبط بأحد له حقوقه الشخصية والاجتماعية والسياسية

وقـد تـتعدى الحرية هذه المعاني المحدودة إلى انفلات غير محدود ، من أي قيد [١] .

والحرية في الفكر الاشتراكي لا تختلف كثيراً عن الحرية في الفكر الرأسمالي الغربي فهي في الفكر الرأسمالي إطلاق لكل القيود ، وفي الفكر الاشتراكي إطلاق للقيود التي تعترض سبيل البدن وحده [٢] .

إن الحـرية فـي الإسـلام تعني تحمل المسئولية وعلى قدر تحمل المسئولية تكون الحرية .

[٦] إن هـذا الحديث يحدد مساوئ المذهب الفردي ... كما يحدد واجب المجتمع في كبح جماح الأفراد ورد غوايتهم وهكذا يبدو أن الجماعة مسـئولة عـن الأفراد إذا ما تجاوز الفرد حدوده ، وأن مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة ومصلحة الجماعة من مصلحة الفرد .

كمـا أن هـذا الحديـث بهـذا التوجيه النبوي لا يفصل بين الفرد والجماعة ولا يضعهما في معسكرين متصارعين يحاول أحدهما أن يغتال حقـوق الآخـر ، فمـادام للفرد نزعة استقلالية - ولكنها لا تخرجه عن كونـه عضواً في المجتمع-فقد راعى منهج الإسلام التوازن بين النزعة الفردية والجماعية دون أن يلغي إحدى النزعتين لحساب الأخرى - ودون أن يسحق الفرد لحساب المجتمع ، أو يضر بنظام المجتمع كله لحسـاب

---

(١) دكتور عبد الغني عبود ، قضية الحرية وقضايا أخرى ، ص ٦٢ ، ط دار الفكر العربية ١٩٧٩م .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

فــرد أو أفراد ، إنه يهتم بالإنسان من حيث هو إنسان له خصائصه وقيمه سواء أكان فرداً أم عضواً في جماعة ، وهذا لون من التكامل (١) .

قال تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ..﴾ (٢) .

ولتحقــيق هذا التكامل انبثق منهج الدعوة إلى الله تعالى من قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ... ﴾ (٣) .

التكامل بين جميع العلوم :

ذلك أن العلم الذي يدعو إليه الإسلام هو العلم الشامل بشقيه الديني والمــادي ، أمــا الشق الديني فهو العلوم التي مصدرها الوحي ، أما الشق المادي فهو علوم البحث في ظواهر الكون والحياة ، ويهتدي الإنسان إليها بمداركــه البشرية التي أنعم الله بها عليه ليبصر طريق المعرفة الصائبة ويفتح مغالــيق الحضارة ، ليملأ الأرض خيراً وبركة بعد أن ملئت بالسحر والخرافة والهامــة الكهانة ، وذلك لأن الإسلام حرر العقول من كل القيود الجاهلية التــي كانــت تشــدها بالأباطيل وحثها على النظر والتأمل في كون الله المفتوح فقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٤) ، وقال سبحانه : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) انظر : قيم حضارية ، توفيق محمد السبع ، ص ١٩٠ ــ ١٩٤ بتصرف .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٢٥ .

(٣) سورة التوبة الآية : ١٢٢ .

(٤) سورة يونس الآية : ١٠١ .

(٥) سورة الذاريات الآية : ٢١ .

وقال (ﷻ):﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (١) وقال:﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٢) .

فهذه الآيات وغيرها تبين بوضوح أن أصول الإسلام العقدية والشرعية والأخلاقية تتفق تماماً مع العقل ، والعقل هو الذي يحصل العلم ، والإسلام ينشد التكامل العلمي ، ومن أجل هذا انطلق المسلمون الأوائل يبحثون في كل المناحي العلمية حتى أصبح العالِم منهم كأنه جامعة متنقلة ، فابن سينا مثلاً " اشتغل بالرياضيات والفلك ، وعلم الطبيعة ، والفلسفة ، والموسيقى ، والطب ، والمنطق وله في هذه كلها مؤلفات قيمة ، يعد بعضها من موسوعات العلوم ، تشهد لــه بعبقريته ونبوغه ، وقد نقلت هذه المؤلفات إلى اللغة اللاتينية ، وكان لها أثر عظيم في نهضة أوربا الحديثة وهو أول من اكتشف الديدان الطفيلية الموجودة في الإنسان المسماة الآن باسم " الإنكلستوما " ، وكذلك المرض الناشئ عنها وكتب هذا في كتابه " القانون في الطب " في الفصل الخاص بالديدان المعوية (٣) . كما اكتشف الطبيعة المعدية لمرض السل وكثيراً من أمراض الأعصاب .

أمــا الحســن بــن الهيــثم فقد كان موسوعة في كل المناحي العلمية ، فألف في العلوم الفلسفية ، والطبيعة ، ثلاثة وأربعين كتاباً ، وفي العلــــوم

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٣ .

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٦ .

(٣) الدكــتور محمــد سيد الوكيل : هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه ، ص ١٥٧ – ١٥٩ بتصرف .

الرياضية والتعليمية خمسة وعشرين كتاباً ، وفي الهندسة واحداً وعشرين كتاباً ، وفي الفلك سبعة عشر كتاباً ، وفي الحساب ثلاثة كتب ، وقد نيفت – زادت – مصنفاته وكتبه ورسائله على المئتين .

وابـن الهيـثم يعـد واحداً من العلماء الأفذاذ في موضوع انكسار الضـوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكة العين وأنشأ علماً يبحـث في امتداد الأضواء الذاتية التي تنبعث من الأجسام المضيئة بذاتها كضـوء الشمس وضوء النهار والأنوار العرضية التي تشرق من سطوح الأجسام الكثيفة ، التي تستضيء بضوء الأجسام المضيئة بذاتها (١) .

أمـا أبـو بكر الرازي فهو الآخر من العلماء الذين فهموا التكامل والشمول العلمي ومن ثم ألَّف في الطب والكيمياء والفلسفة وعلوم الشريعة فقـد " ألـف كتباً قيمة في الطب وكشف عن مرض الجدري والحصبة ، وتحـدث عن أهمية التطعيم ، واكتشف أن مركز الإبصار هو قاع العين ، ونـادى بأن الكيمياء يجب أن تستغل في خدمة الطب ، وقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية وغيرها من اللغات .

والسبب في ذلك أن الغاية المثلى للتربية عند المسلمين كانت في أن يقـرب الإنسـان مـن الكمال في كل ناحية من نواحي العلم ، ولذلك كان ابن سينا يباهي بأنه يجيد معرفة كل علم وفن يخطر بالبال (٢) .

---

(١) انظر : المصدر السابق ص ١٥٨ ، والإسلام وحركة التاريخ ، أنور الجندي ص١٦٩

(٢) الإسلام وحركة التاريخ ، أنور الجندي ص ١٧٢ .

وقد فهم المسلمون روح التكامل في منهج البحث العلمي ، والجدل العلمـــي الذي قام على سلطان العقل بالمحاكمة والمحاجة والتقرير ، ذلك " أن الـــنظر العقلي يقتضي أنه لا يمكن أن يوجد أي تناقض أو اضطراب بين معطيات الوحي وقناعة العقل [١] .

وبهـــذا الـــتكامل عالج الإسلام مشكلة عالمية من مشكلات العصر الحاضر ، وهي مشكلة التخصص التي شطرت ثقافة العصر إلى شطرين متباعديـــن حـــتى أصبحت جهود العلماء في إنجلترا وأمريكا تنصب على عـــلاج هذه القضية ، لأن العالم المتخصص نصف إنسان فقط ، والإنسان الصحيح هو الذي لا يجهل بقية العلوم الأخرى .

---

(١) راجع : إسلامية المعرفة ، المبادئ العامة ص ٩١ .

المبحث الثالث

خصيصة الجمع بين الثبات والمرونة

المــنهج الدعوي يجمع بين الثبات والمرونة ، لأنه جاء للناس كافة وراعــى أحوال المدعو في كل أحواله ، لأنه منهج يقوم على الوسطية في العقــيدة والشــريعة والأخلاق ، والذين يكتبون عن منهج الإسلام ورسالته وحضارته ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

القســم الأول : يــتحدثون عن التطور في أحكام الإسلام وتعاليمه حتى جعلوه عجينة لينة قابلة لما شاء الناس من خلق وتشكيل بلا حدود ولا قــيود ، فكل شيء في نظرهم قابل للتطور والتجديد والتحديث بلا ضوابط وهؤلاء من المغرضين .

القسم الثاني : يبرزون جانب الثبات والقيود في تشريعه وتوجيهه حــتى يخيل إليك أنك أمام صخرة صلدة ، لا تتحرك ولا تلين . وهذا هو عيــب كثير من البشر ، حين ينظرون إلى القضايا من جانب واحد مغفلين بقية الجوانب ، فيجنحون إلى الإفراط أو التفريط .

القسم الثالث : و الذي سلم من غلو المفرطين ، وتقصير المفرطين وكانــت رؤيــته واضــحة لهذا المنهج الإلهي الفريد الذي قام على أساسه مجتمع رباني إنساني يجمع بين الثبات والتطور [١] .

وهــذا يدفعــنا إلــى الحديث عن مفهوم الثبات ، ومجالات الثبات ومجالات المرونة على النحو التالــي :

---

(١) دكتور يوسف القرضاوي ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ٢٠٣ .

مفهوم الثبات :

الثبات هو ما لا يقبل التبديل أو التحويل كسنن الله المبثوثة في كونه قال تعالى :﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(١) ، .

وقال (ﷻ):﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾(٢) .

ومن روائع الإعجاز في المنهج الدعوي أن الله-سبحانه-أودع فيه عنصر الثبات والخلود ، وعنصر المرونة والتطور ، ومن ثم نستطيع أن نحدد مجال الثبات ومجال المرونة في هذا المنهج فنقول :

أولاً : ثبات السنن الكونية :

إذا نظرنا إلى الكون من حولنا وجدناه يحوي أشياء ثابتة تمضي ألوف السنين وألوف الألوف وهي هي ، أرض وجبال ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، ونجوم مسخرات بأمر الله كل في فلك يسبحون . وفيه أيضاً عناصر جزئية متغيرة ، وجزر تنشأ ، وبحيرات تجف ، وأنهار تحفر ، وماء يطغى على اليابسة ، ويبس يزحف على الماء ، وأرض ميتة تحيا ، وصحار قفر تخضر ، وبلاد تعمر ، وأمصار تخرب ، وزرع ينبت وينمو ، وآخر يذوي ويصبح هشيماً تذروه الرياح .

هذا شأن الكون ثبات وتغير في آن واحد ، ولكنه ثبات في الكليات والجوهر وتغير في الجزئيات (٣) .

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤٣ .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٢٧

(٣) انظر الخصائص العامة للإسلام ، د/ يوسف القرضاوي ص ٢٠٦ ط مكتبة وهبة .

ولـــو لم تكن هذه السنن ثابتة في الكليات متغيرة في بعض الأحيان فـــي جزئـــيات مـــا كان في هذا الوجود توازن ولا استقرار .. ولو كانت الأحداث تجري في الكون مصادفة بلا ضابط يضبطها كما يدعي الملحدون لمـــا كـــان هـــناك ضرورة إذاً لوجود تماثل بين ذرات العنصر الكيميائي الواحد مثلاً ، وما كان من الضروري أن تشترك جميع ذرات هذا العنصر بصـــفات معينة تميزها عن غيرها من ذرات العناصر الأخرى ، ولكانت مـــن الجائـــز أن تحدث الظاهرة في بعض ذرات العنصر الكيميائي ، ولا تحدث في غيرها من ذرات العنصر نفسه ، لا لشيء إلا للمصادفة ! وهذا ما لا يقبله منطق العقل ولا تؤيده الوقائع الملموسة والمشاهدة ، والتي تثبت كلهـــا الـــتقدير والتدبـــير في أمر الخلق كله ، ونفي العبث عنه ، وتوحي بالثبات في السنن ، التي تحكم كل شيء فيه [١] .

أهمية ثبات السنن الكونية :

إن ثـــبات السنن الكونية على صورة واحدة لا تتبدل ولا تتغير ولا تـــتطور يمنحـــنا قـــدرة في التعامل معها والتحكم بمسارها ، فالسنة تشبه الجـــدار المتيـــن ، الذي لا يمكن هدمه ، ولا اختراقه ، ولا زحزحته عن مكانه وهذا – دون ريب – يمثل نوعاً من التحدي أمامنا .. غير أننا يمكن أن نواجه هذه العقبة دون تغيير شيء من صفات الجدار .. فيمكننا مثلاً أن نستخدمه للاستناد وإقامة جسر فوقه ، أو نستخدمه كجزء من بناء غرفة ،

---

[١] الدكـــتور أحمـــد محمد كنعان ، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الكون ، كتاب الأمة ، الطبعة الأولى ، ص ٦٩ – ٧٠ .

أو نستخدمه لدرء الريح والشمس .. وبهذا نستطيع التحكم بالجدار من غير تبديل في وضعه أو اتجاهه أو صفاته .

كذلــك ســنن الله في الخلق نستطيع أن نسخرها في شؤون حياتنا بهدايــته لنا إلى كشف صفاتها ، وإعطائنا القدرة على التصرف بها ، من خلال هذه الصفات ونضرب لذلك مثلاً :

خلق الله (ﷻ) العناصر الكيميائية المختلفة وجعل لكل منها صفات كيميائية وفيزيائية ثابتة لا تتغير ، ومع هذا فقد استطاع الإنسان بفضل الله أن يحصل من هذه العناصر على صفات جديدة ، من خلال التفاعلات التي تتم بين بعض هذه العناصر وبعضها الآخر .

وتعــد سنن الله في الخلق بمثابة عناصر كيميائية ذات صفات ثابتة لا تتغــير وكما نحصل من تفاعل العناصر الكيميائية على مركبات جديدة وصفات جديدة ، فكذلك التفاعل بين السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق فــإن هذا التفاعل يمدنا بقدرات تسخيرية جديدة لم تكن متاحة لنا من قبل . وقد استطاع العلم الحديث أن يفهم هذه الحقيقة ، ففي عالم الفضاء والأقمار الصــناعية اســتطاع أن يــتعامل مع سنتين مختلفتين تتحكمان في دوران الأقمــار الصناعية حول الأرض هما : سنة الجاذبية الأرضية وسنة القوة الطاردة المركزية .

فالقمــر الصناعي إنما يستقر في مداره الثابت حول الأرض نتيجة تفاعل هاتين السنتين فيما بينهما ، فالجاذبية الأرضية تشد القمر الصناعي نحو مركز الأرض بقوة معينة ، بينما تدفعه القوة الطاردة بعيداً عن مركز

الأرض بقـــوة مســـاوية للأولى بالمقدار ، ومعاكسة لها بالاتجاه ، فتكون المحصلة استقرار القمر في مدار ثابت حول الأرض ، وعلى هذه الصورة من الفهم يجب أن يكون تعاملنا مع السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق فلـــيس لنا أن نفكر في تعديل صفاتها ، أو تبديلها ، وإنما علينا أن نعرف صـــفاتها ، وأن نتصـــرف بها وفق هذه الصفات الثابتة ، التي قدرها الله -سبحانه وتعالى-كما شاء [١] .

ثانياً : ثبات الحقائق التي تتعلق بالعقيدة :

الـــناظر إلـــى المنهج الدعوي يجد أن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية ثابـــت فـــي حقيقته ، وثابت في مفهومه ، وغير قابل للتغيير ولا للتطوير فمثلاً :

حقـــيقة وجـــود الله وسرمديته ووحدانيته ، وقدرته وهيمنته وتدبيره لأمر الخلـــق ، وطلاقة مشيئته .. إلى آخر صفات الله الفاعلة في الكون والحياة والناس .

حقـــيقة أن الكـــون كله من خلق الله وإبداعه ، وليس لشيء في هذا الكون أثـــارة من أمر الخلق ، ولا التدبير ولا الهيمنة ولا مشاركة في شيء من خصائص الألوهية بحال ..

حقـــيقة العـــبودية لله .. عبودية الأشياء والأحياء .. وعموم هذه العبودية للـــناس جميعاً بما فيهم من رسل ، عبودية مطلقة ، لا تتلبس بها أثارة من خصائص الألوهية مع تساويهم في هذه العبودية .

---

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

وحقـــيقة أن الإيمـــان بالله – بصفته التي وصف بها نفسه – وملائكته ، وكتـــبه ، ورســـله ، والـــيوم الآخر ، والقدر خيره وشره .. شرط لصحة الأعمال وقبولها ، وإلا فهي باطلة من الأساس .

وحقـــيقة أن الدين عند الله الإسلام وأن الله لا يقبل من الناس ديناً سواه ، وأن الإسلام معناه إفراد الله سبحانه بالألوهية بكل خصائصها ، والاستسلام لمشيئته ، والرضا بالتحاكم إلى أمره ومنهجه وشريعته ، وأن هذا هو دينه الذي ارتضاه لا أي دين سواه .

وحقـــيقة أن الإنســـان – بجنســـه – مخلوق مكرم على سائر الخلائق في الأرض ، مســـتخلف من الله فيها ، مسخر له كل ما فيها ، ومن ثم فليست هناك قيمة مادية في هذه الأرض تعلو على قيمة هذا الإنسان ، أو تهدر من أجلها قيمته .

وحقـــيقة أن الـــناس مـــن أصل واحد ، ومن ثم فهم – من هذه الناحية – متســـاوون ، وأن القـــيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها – فيما بينهم – هي التقوى والعمل الصالح ، لا أية قيمة أخرى ، من نسب أو مال أو مركز أو طبقة أو جنس ... إلى آخر القيم الأرضية .

وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله .. بمعنى العبودية المطلقة لله وحده ، بكل متقضيات العبودية وأولها الائتمار بأمره – وحده– في كل أمـــور الحـــياة صغيرها وكبيرها ، والتوجه إليها – وحده – بكل نية وكل حـــركة ، وكل خالجة وكل عمل ، والخلافة في الأرض وفق منهجه – أو بتعبير القرآن وفق دينه – إذ هما تعبيران مترادفان عن حقيقة واحـــــدة

وحقــيقة أن رابطة التجمع الإنساني هي العقيدة ، وهي هذا المنهج الإلهي لا الجــنس ، ولا القــوم ، ولا الأرض ، ولا اللــون ، ولا الطبقة ، ولا المصــالح الاقتصــادية و السياســية ولا أي اعتبار آخر من الاعتبارات الأرضية ..

وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء وعمل ، وأن الآخرة دار حساب وجزاء ، وأن الإنســان مبتلى وممتحن في كل حركة وفي كل عمل ، وفي كل خير يناله أو شــر ، وفي كل نعمة وفي كل ضر .. وأن مرد الأمور كلها إلى الله -سبحانه وتعالى-[١] .

---

(١) انظــر : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، سيد قطب ، ص ٨٧ – ٨٨ ، ط دار الشروق .

ثالثاً : الثبات والمرونة في الأحكام الشرعية :

للثبات والمرونة مظاهر ودلائل شتى ، نجدها في مصادر الإسلام وشريعته وتاريخه ، يتجلى هذا الثبات في المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع من كتاب الله ، وسنة رسوله (ﷺ) ، فالقرآن الكريم هو الأصل والدستور ، والسنة النبوية هي الشرح النظري ، والبيان العملي للقرآن وكلاهما مصدر إلهي معصوم ثابت ، لا يسع مسلماً أن يعرض عنها ، قال (ﷺ):﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٢) .

وتتجلى المرونة في المصادر الاجتهادية التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق ، ومقل ومكثر ، مثل : الإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة ، وأقوال الصحابة وشرع من قبلنا ، وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد وطرائق الاستنباط .

وذلك لأن أحكام الشريعة تنقسم إلى قسمين بارزين : قسم يمثل الثبات والخلود . وقسم يمثل المرونة والتطور . فالثبات يتمثل في العقائد الأساسية .. وفي الأركان العملية الخمسة .. وفي المحرمات اليقينية .. وفي أمهات الفضائل من الصدق والأمانة والعفة والصبر والوفاء بالعهد والحياء وغيرها من مكارم الأخلاق التي اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان. وفي شرائع الإسلام القطعية في شؤون الزواج والطلاق والميراث

---

(١) سورة النور الآية : ٥٤ .

(٢) سورة النور الآية : ٥١ .

والحدود والقصاص ، ونحوها من نظم الإسلام التي ثبتت بنصوص قطعية الدلالـة . فهـذه الأمور الثابتة ، تزول الجبال ولا تزول نزل بها القرآن وتواتـرت بها الأحاديث ، وأجمعت عليها الأمة ، فليس من حق مجمع من المجـامع ولا مـن حـق مؤتمر من المؤتمرات ، ولا من حق خليفة من الخلفـاء ، أو رئيس من الرؤساء أن يلغي أو يعطل شيئاً منها ، لأنها من كليات الدين وقواعده وأسسه .

وفي مقابل هذا القسم نجد القسم الذي يمثل المرونة وهو ما يتعلق بجزئيات الأحكام وفروعها العملية ، وخصوصاً في مجال السياسة الشرعية .

يقول ابن القيم : الأحكام نوعان :

النوع الأول : وهو لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها ، لا بحسب الأزمـة ولا الأمكـنة ، ولا اجتهاد الأئمة ، كوجوب الواجبات ، وتحريم المحـرمات ، والحـدود المقدرة بالشرع على الجرائم ، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه .

الـنوع الثاني : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحـالاً ، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها ، فإن الشارع ينوع فيها حسب مصلحة . وقد ضرب ابن القيم لذلك عدة أمثلة من سنة النبي (ﷺ) وسـنة خلفائـه الراشدين المهديين من بعده . ثم قال : (هذا باب واسع ، اشـتبه فـيه علـى كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير بالتعزيرات للمصالح وجوداً وعدماً) (١) .

---

(١) راجع : الخصائص العامة للإسلام ، د / يوسف القرضاوي ، ص ٢٠٩ .

أمثلة الثبات والمرونة

في المنهج الدعوي من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية

أولاً : الثبات والمرونة في هدي القرآن الكريم :

الذي يتدبر القرآن الكريم يجد في نصوصه المقدسة دلائل جمة على هذه الخصيصة البارزة في الجمع بين الثبات والمرونة من ذلك ما يلي :

[١] يتمثل الثبات في قوله-تعالى-في وصف مجتمع المؤمنين : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[١] وفي قوله لرسوله (ﷺ)﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[٢] فلا يجوز لحاكم ، ولا لمجتمع أن يلغي الشورى من حياته السياسية والاجتماعية ، ولا يحل لسلطان أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون

وتتمثل المرونة في عدم تحديد شكل معين للشورى ، يلتزم به الناس في كل زمان وكل مكان ، لأن المجتمع يتضرر بهذا التقييد .. ومن ثم يستطيع المؤمنون في كل عصر أن ينفذوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التي تناسب حالهم وأوضاعهم .

[٢] يتمثل الثبات أيضاً في الحكم بالعدل بين الناس ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ ﴾ [٣] وقال سبحانه:﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [٤] .

---

[١] سورة الشورى ، الآية : ٣٨ .

[٢] سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

[٣] سورة النساء ، الآية : ٥٨ .

[٤] سورة المائدة ، الآية : ٤٩ .

فهـذا يمثل جانب الثبات في مجال الحكم والقضاء والالتزام بالعدل والحذر من اتـباع الأهـواء . وتتمـثل المـرونة في عدم الالتزام بشكل معين للقضاء والتقاضي وهل يكون من درجة واحدة أو أكثر ؟ وهل يكون هناك محكمة جنايات وأخرى للمدنيات ؟ فهذا كله متروك لاجتهاد أولي الأمر .

[٣] يتمثل الثبات في عدم اتخاذ الكافرين أولياء لقوله سبحانه﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ (١) ولقولـه (ﷻ):﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) .

وتتمثل المرونة في الاستثناء من هذا الحكم عند الضرورة لقوله ﷻ:﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾(٣) وقوله:﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (٤) فهـذه الاسـتثناءات وأمـثالها في كتاب الله أعطت فسحة لمن تقهره الظروف الشخصية والاجتماعية فلا يقدر على الصمود والثبات .

[٤] يتمثل الثبات في قوله (ﷻ):﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِـنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّـبُعُ إِلَّـا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُـمْ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٢٨ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٥١ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٢٨ .
(٤) سورة النحل ، الآية : ١٠٦ .

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) .

وتتمثل المرونة في قوله بعدها:﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) ، فقرر بذلك مبدأ (رعاية الضروريات) ولكنه لم يطلــق فيه العنان لمن أراد ، بل قيده بقوله " غير متجانف لإثم " أي غير مــائل للحرام .. حتى لا يسترسل الناس في الحرام باسمها، ومن ذلك أخذ مبدأ " ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها " (٣) .

[٥] يتمــثل الثبات في رفض القرآن الكريم للاجتهاد والرأي إذا كــان في مقابلة نص محكم ولهذا أنكر الكتاب العزيز على الذين استحلوا الــربا تشــبيهاً له بالبيع مع أن الله أحل هذا وحرم ذلك ، فلا مجال لقياس ولا نظــر حينئذ ، وفي ذلك يقول تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (٤) .

وتتمثل المرونة في إقرار الاجتهاد في الأمور القضائية ونحوها مما تــتفاوت في فهمه العقول وتختلف التقديرات ، وفي هذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُــلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَــانِ فِــي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٥) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

(٣) الخصائص العامة للإسلام ، د / يوسف القرضاوي ، ص ٢١٠ – ٢١١ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥ .

(٥) سورة الأنبياء : ٧٨ .

ثانياً : الثبات والمرونة في الهدي النبوي :

المتأمل في السنة النبوية يجد فيها أمثلة شتى توضح المنهج الدعوي في الثبات والمرونة من ذلك ما يلي :

[١] يتمثل الثبات في كل ما يتصل بتبليغ الوحي أو يتعلق بكليات الديـــن ، وقـــيمه ، وأسسه العقائدية والأخلاقية ، فحين عرض المشركون على النبي (ﷺ) أن يلتقوا معه في منتصف الطريق ليقبل شيئاً من عبادتهم ويقبلوا شيئاً من عبادته ، فيعبد آلهتهم مدة ، ويعبدوا إلهه مدة ، كان جوابه الحاســم الـــرافض الـــذي حمله الوحي الصادق ، في صورة قطعت كل المساومات وحسمت كل المفاوضات في قوله تعالى :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَـــا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١) .

ولما قرأ عليهم آيات الله البينات التي أنكرت عليهم شركهم وعنادهم فجاء المشركون له (ﷺ) وقالوا : " ائت بقرآن غير هذا أو بدله " فكان الرد القاطع من الله تعالى لرسوله (ﷺ) : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وعندما جاء عتبة بن ربيعة يتحدث بلسان قريش ويعرض عليـــه

---

(١) سورة الكافرون .
(٢) سورة يونس الآية : ١٥ – ١٦ .

أموراً يحرص عليها طلاب الدنيا وبعد أن استمع له ، قال له النبي (ﷺ) : أفرغـت يـا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني ثم تلا عليه أوائل سـورة فصـلت إلى قوله تعالى:" فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صـاعقة عـاد وثمـود ... " فمـا أن سمعها الرجل ، حتى خيل إليه أن الصـاعقة تكاد تنزل عليه وعلى قومه ، فقال : أنشدك الله والرحم يا ابن أخي أن تكف عن هذا .

ويـوم حاولت قريش الضغط على عمه أبي طالب مرة بعد مرة ، ليضـغط هو بدوره على ابن أخيه ، عسى أن يثنيه عن دعوته ، أو يخفف مـن حماسـه وحرارته حتى إنهم هددوه مرة أن ينازلوه وبني هاشم وجهاً لوجـه ، إلـى أن يهلك أحد الفريقين أو يكف محمد عن الآلهة ، وتضليل الآبـاء وتسفيه الأحلام .. وضعف أبو طالب أمام هذا التهديد فعرض على ابن أخيه أن ينظر في مطالبهم ويسمع منهم وقال له : لا تحملني من الأمر مـا لا أطيق ... فاغرورقت عيناه بالدموع وقال كلمته التاريخية : " والله يـا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه " .

ومـثل ذلك موقفه (ﷺ) من كذاب بني حنيفة " مسيلمة بن حبيب " الـذي ادعى النبوة في قومه ، وكتب إلى الرسول (ﷺ)كتاباً قال فيه " من مسـيلمة إلـى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد ، فإني قد أشركت في الأمـر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون " . فرد عليه رسول الله (ﷺ) رداً شديداً قال فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام علـــى من اتبع الهدى أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين " (١) .

فهذه المواقف تدل على الثبات ولا تقبل المرونة بأي حال من الأحوال .

وفـــي مقـــابل ذلك نجد مرونة واسعة في مواقف السياسة والتكتيك ومواجهة الأعداء بما يتطلبه الموقف المعين من حركة ووعي وتقدير لكل الجوانب والملابسات دون تزمت أو تشنج أو جمود من ذلك ما يلي :

فـــي غـــزوة الأحـــزاب يتشـــاور الرسول (ﷺ) مع بعض رؤساء الأنصـــار ومع بعض الصحابة وينزل على رأي سلمان الفارسي في حفر خندق حول المدينة .

وفـــي صـــلح الحديبية رفضت قريش أن تكتب في الوثيقة بسم الله الرحمن الرحيم ، وأصرت على أن تبدأ باسمك اللهم فقبل (ﷺ) ذلك ، ولما كتـــب على بن أبي طالب (ﷺ) من محمد رسول الله رفضت قريش كلمة رسول الله بعد أن كتبها علي بن أبي طالب (ﷺ) ، ورفض أن يمحوها بعد كتابتها .. فأخذ (ﷺ) منه القلم ومحاها بيده (٢) .

[٢] الثـــبات في أداء فرائض الله : الناظر في الهدي النبوي يجد الثبات في تشديده (ﷺ) في أداء فرائض الله وإقامة شعائره التعبدية مـــن

(١) ســـيرة ابن هشام ، بتحقيق السقا والإبياري وشلبي (٢ / ٦٦) ط ثالثة ، دار إحياء التراث . والخصائص العامة للإسلام ، د / يوسف القرضاوي ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام .

الصلاة والزكاة والصيام وغيرها والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها ما يأتي :

أنه (ﷺ) جعل الفارق بين الإسلام والشرك ترك الصلاة فقال (ﷺ) في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : " بين العبد وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة " [١] .

وعن بريدة (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : " العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر " [٢] .

بل إن من تهاون في بعض شروط الصلاة وهو يؤديها يعذب في قبره ، كذلك الذي لم يكن يستبرئ من بوله ، فعن ابن خزيمة أن النبي (ﷺ) مر بحائط - بستان - من حيطان مكة أو المدينة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما ، فقال النبي (ﷺ) : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ثم قال : بل كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشي بالنميمة .

بل إنه (ﷺ) يرهب من ترك صلاة العصر ، ففي الحديث الذي رواه البخاري والنسائي عن بريدة (رضي الله عنه) قال : قال النبي (ﷺ) : " من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله " [٣] . وفي الحديث الذي رواه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي (ﷺ) قال " الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله " أي نقص أهله وماله [٤] .

---

[١] رواه الترمذي في سننه كتاب الإيمان عن رسول الله باب ما جاء في ترك الصلاة (٢٥٤٣) وقال حديث حسن صحيح .

[٢] انظر : الترغيب والترهيب (١ / ٢٣٢) .

[٣] انظر المصدر السابق (١ / ٢٠١) .

[٤] المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

ونجـد أنه يهم أن يحرق على قوم بيوتهم يتخلفون عن الجماعات ففي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة(ﷺ)قال : قال رسول الله(ﷺ): " لقـد هممـت أن آمـر فتيتي فيجمعوا لي حزماً من حطب ثم آت قوماً يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقن عليهم .. " [١] .

وعندما سأله رجل فاقد البصر ليصلي في البيت رخصة له فلم يأذن لـه ، فعـن ابن أم مكتوم (ﷺ) قال : قلت يا رسول الله أنا ضرير شاسع الدار ولي قائد لا يلايمني فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي ؟ قال : أتسمع النداء ؟ قال : نعم . قال : ما أجد لك رخصة [٢] .

وفـي الصـيام نجد ثباته (ﷺ) في فريضة الصيام حتى إنه يجعل إفطـار يوم واحد من غيرٍ عذر لا يكفيه في تكفيره صيام العمر كله ، ففي الحديـث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة(ﷺ)أن رسول الله (ﷺ) قال : " من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ، ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه " [٣] .

وفي مقابل هذا الثبات نجد مرونة سمحة تتمثل في تشريع الرخص فـي الصـلاة والصـيام مثل رخص المرض والسفر والخطأ والنسيان ، والإكراه وعموم البلوى وغير ذلك . ومن ذلك قصر الصلاة الرباعية بأن تصلى اثنتين في السفر ، ومثله الجمع بين الصلاتين ، وتشريع التيمم عند

---

[١] المصدر السابق ص ١٨٣ .

[٢] المصدر السابق ص ١٨٣ .

[٣] رواه الـترمذي واللفـظ له كتاب الصوم عن رسول الله باب ماجاء في الإفطار متعمداً (٦٦٥) وأبو داود في كتاب الصوم (٢٠٤٥) وابن ماجه كتاب الصيام (١٦٦٢) وغيرهم.

فقـد المـاء أو التضرر باستعماله فترة وإباحة الفطر للمريض والمسافر ، وكذلك للحامل والمرضع ، والشيخ الكبير ، والمرأة العجوز .

فإقـرار الرخص في محالها ضرب من ضروب التيسير ، وسبيل من سبل التخفيف ، ومسلك يقود إلى دفع الحرج ، ورفع المشاق والتعسير ففي المسند من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً : إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه [١] .

وفـي هذه المرونة في الدعوة إلى الله لا تعني بحال الترخص في كـل شيء بالتشهي والهوى ، والجري وراء زلات العلماء ، وتتبع رخص المذاهب ، قال سليمان التيمي : " لو أخذت برخصة كل عالم ، أو زلة كل عالم ، اجتمع فيك الشر كله " [٢] .

وسبب ذلك أن المتتبع للرخص والمنتقي للأقوال من شتى المذاهب دونما ترجيح معلوم أو دليل مرسوم ، أو استدلال موافق لأصول الشرع ، معتـبر فـي قواعد الاستنباط ، فإنه بذلك يتبع هواه ، ويختار ما اشتهاه ، فـيكون مناقضـاً لمقصد الشريعة في إخراج العبد من دائرة هواه ، ليكون عبداً لله اختياراً ، كما هو عبد لله اضطراراً [٣] .

---

[١] أخرجه أحمد في المسند (٢ / ١٠٨) ط دار صادر ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان

[٢] إغاثة اللهفان لابن القيم (١ / ٢٣٠) ، نشر مكتبة الرياض الحديثة .

[٣] من مرتكزات الخطاب الدعوي ، عبد الله الزبير ، كتاب الأمة ، ص ١٠٤ .

ثالثاً : المرونة في عرض الدعوة بالحسنى :

الناظر في المنهج الدعوي يجد أنه يقوم على دعوة الناس بالحسنى فقــد كــان رسول الله (ﷺ) بحسن تعامله مع الناس ترجمة صادقة للمنهج الدعوي ولم لا وقد جعله الله قدوة وأسوة للناس فأعطى من نفسه القدوة في كل شيء وحكم لغير المسلم ، إقامة للحق والعدل بتوجيه الوحي المعصوم ونذكــر لذلــك موقفيــن من مواقفه الدعوية التي أعطى فيها القدوة لغير المســلم ، فأقنع العالمين بأحقية الإسلام في قيادة البشرية إلى قيام الساعة ودعوتهم إليه .

الموقف الأول : في إنصاف أحد اليهود :

فــي قصـــة اليهودي الذي اتهم بسرقة الدرع وهي : أن رجلاً من المســلمين ســرق درعــاً ، فلما خاف أن تظهر عليه ، رمى بها في دار يهــودي ، فلمــا وجــدت الدرع أنكر اليهودي أن يكون أخذها ، واستعان الســارق بقومه على اليهودي ، فغلب على ظن النبي (ﷺ) أن اليهودي قد ســرقها إذ شــهد شهود بذلك ، ووجدت الدرع في بيته ، وهذه كلها قرائن قوية ، ولكن القرآن ينزل ببيان الحق قائلاً :﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا...﴾ [1] تسع آيات نزلت لتبين براءة غير المسلم .

يقول سيد قطب وهو يعلق على هذه الآيات : تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيراً ، ولا تعرف لها البشرية شبيهاً .. مهما ارتفع تصورهم

---

[1] سورة النساء ، الآية : ١٠٥ – ١١٣ .

ومهما صفت أرواحهم ، ومهما استقامت طبائعهم ، لا يمكن أن يرتفعوا – بأنفسهم – إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات ، إلا بوحي من الله .. إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة ، التي تحويها جعبتهم اللئيمة على الإسلام والمسلمين ، والتي حكت هذه السورة وسورة البقرة وسورة آل عمران جانباً منها ومن فعلها في الصف المسلم .... في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ، ويؤلبون المشركين ، ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ، ويطلقون الإشاعات ، ويضللون العقول ، ويطعنون في القيادة النبوية ، ويشككون في الوحي والرسالة ، ويحاولون تمزيق المجتمع المسلم من الداخل ، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج ... والإسلام ناشئ في المدينة ، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس ، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه ، في هذا الوقت الحرج ، الخطر ، الشديد الخطورة .. كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله (ﷺ) وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلاً يهودياً ، اتهم ظلماً بسرقة ، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم بيت من الأنصار في المدينة ، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول (ﷺ) وجنده في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة ... أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي ! ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ؟ وكل كلام ، وكل تعليق ، وكل تعقيب ، يتهاوى دون هذه القمة السامقة التي لا يبلغها البشر وحدهم ،

بـل لا يعـرفها البشـر وحدهم ، إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيئ ؟! [١] .

وكـان السارق رجل من الأنصار اسمه طعمة بن أبيرق ، وفي رواية أنه بشـير بـن أبـيرق ، وكـان البريء الذي رموه بالسرقة زيد بن السمين اليهودي وقيل لبيد بن سهل [٢] .

دلالات هذا الموقف :

المـتأمل فـي المـنهج الدعوي من خلال هذا الموقف الذي سجله الوحي الكريم يستطيع أن يستخرج عدة دلالات في غاية الأهمية منها :

١ – إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى :

إن هـذه الحادثة – من خلال المنهج الدعوي – لم يكن القصد منها مجـرد تـبرئة برئ ، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام – وإن كانت تبرئة برئ أمراً هائلاً ثقيل الوزن في ميزان الله – إنما كانت المسألة أكبر من ذلك بكثير ، كان الهدف منها إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ولا مـع العصـبية ، ولا يـتأرجح مـع المودة والشنآن أياً كانت الملابسات والأحوال .

إن المـرء ليعجـب أشـد العجـب عندما يقارن هذا الموقف مع السياسات المعوجة لدول تدعي الحضارة والمدنية وهي تكيل بمكاييل الظلم والطغيان والتسلط للدول الضعيفة . إن أمريكا وبريطانيا لا ينظران إلـى

---

[١] في ظلال القرآن ، سيد قطب (٢ / ٧٥١) .

[٢] الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، المجلد الثالث ، ص ٣٧٦ .

الأمور بموازين العدل ولهذا نشروا الرعب والدمار في كل مكان .

٢ – تطهير المجتمع من رواسب العصبية الممقوتة :

إن هـذه المسـألة تثبت أن المنهج الدعوي يعمل دائماً على تطهير المجتمع من الشوائب التي تعلق به ، ويعالج عناصر الضعف البشري فيه حـتى ولـو كان الأمر يتعلق بأشد الناس عداوة بيهودي من يهود اليهود التي لا تدع سهماً مسموماً تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله .

إن المنهج الدعوي يعمل على تطهير المجتمع من كل الأدران حتى ولو كان هذا التطهير وهذا العلاج يتصل بالأنصار الذين آووا ونصروا .

إن الأمر أكبر من هذا كله أكبر من كل هذه الاعتبارات في حساب المـنهج الدعوي ، لأنه منهج معصوم من الذلل ، منهج يعمل لتربية الأمة لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وقيادة البشرية . وهي لن تقوم بالخلافة فـي الأرض ولن تنهض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهج فريد متفوق على كل ما تعرفه البشرية .

الموقف الثاني في إعطاء الحق لغير المسلم حتى في حالة الإعسار :

إن أبا حدرد (ﷺ) قال : كان ليهودي عليّ أربعة دراهم ، فاستعدى علىّ رسول الله (ﷺ)، فقال له : إن لي على هذا أربعة دراهم ، وقد غلبني علـيها ، قـال : " أعطيـته حقـه " . قلت : والذي بعثك بالحق نبياً ، ما أصـبحت أقدر عليها . قال : " أعطه حقه " ، فأعدت عليه . فقال: " أعطه حقه " فخرجت معه – أي اليهودي – إلى السوق ، وكانت على رأسـي

عمامـــة ، وعليّ بُردة متزر بها ، فاتزرت بالعمامة ، وقال : اشتر البردة فاشتراها بأربعة دراهم [١] .

إن الناظر لهذا الموقف يتبين له أن الإسلام لا يفرق بين المسلم وغير المسلم ، فالعدل خلق إسلامي لا يتجزأ لأي من الأسباب الجنسية أو الدينية أو العرفية ، وهو يشمل الحاكم والمحكوم بلا تفرقة بين مسلم وكافر و كتابي أو بين عربي وأعجمي ، أو بين أمير وحقير ، أو بين أبيض وأسود ، فحقوق الناس مكفولة إسلامياً باعتبار أن كل البشر خلق الله

كمـــا أن عدم تطبيق العدالة بين الناس يؤدي إلى الشعور بالظلم ، وهــذا الشـــعور ينشئ إرهاباً حقيقياً في المجتمع يتسبب فيه الظالم ، لأن المظلوم أو المقهور إذا لم يستطع أن يصل إلى حقه بالحسنى فقد يعلن عن غضـــبه بقيامه برد الظلم بمثله أو ببعض مثله ، أو بأكثر من مثله ومن ثم ينتشـــر الفســـاد في كل مكان ، ولذلك كان أمر الله بالعدل صريحاً ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [٢] .

والعـــدل هو حق الله ولا ينبغي تجاوزه قال (ﷻ): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ

---

[١] انظر : أحكام القرآن للجصاص (٣ / ٣٢٩) ، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢ / ٢٩٥) ، والحديث أخرجه الإمام أحمد (٢ / ٤٢٣) .

[٢] سورة النحل الآية : ٩٠ .

أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾(١)

رابعاً : معاملة غير المسلم بالبر لا ينفي البراء :

قد يظن البعض أن معاملة أهل الكتاب بالبر والقسط تتنافى مع عدم موالاتهم التي تجب أن تكون بين المسلم وغير المسلم لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) ، فهذا غير صحيح لأن التزام الحق مع الناس ومعاشرتهم بالبر والقسط والعدل هو نداء الإسلام في كل حين ، ولم يقصد الإسلام يوماً ما أن تقوم الحياة كلها بين المسلم وغيره على العداء المستمر ، والقتال الدائم ، وتجهم الوجوه وسوء المعاملة ، وفظاظة العشرة ، وفحش الكلام ، وبذاءة القول ، والظلم والتظالم ، لأن الأصل في منهج الدعوة للإسلام يقوم على السلم وطيب المعاشرة ، والعدل والإنصاف والبر والإصلاح وحسن المقال ، قال تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ .

ولما قدمت أم أسماء بنت أبي بكر الصديق(ﷺ)إليها في المدينة وهي مشركة ولكنها راغبة في صلة ابنتها ، فجاءت أسماء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.تسأله عن صلتها ، فقال لها : " نعم صلي أمك " وأنزل الله – سبحانه وتعالى– قوله: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي

---

(١) سورة المائدة الآية : ٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٥١ .

ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) .

وأكثر أهل التأويل والتفسير على أن هذه الآية محكمة باقية أحكامها إلـى يـوم الدين ، وهو ما اختاره الطبري والقرطبي والشافعي في أحكام القرآن (٢) .

إذاً فلـيس محـذوراً ولا ممنوعاً أن تبر غير المسلم المسالم ، وأن تقسـط وتعدل في عشرته ومعاملته ، وأن تنصفه فيما له من الحقوق على المسلمين .

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية : ٨ .

(٢) من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق ، عبد الله الزبير، ص ٧٥ – ٧٦ .

خامسا : المعاملة الإنسانية الكريمة لغير المسلمين حين التمكن من المنهج الدعوي

إن إنسانية الإسلام تعالت فوق كل علو ، وتعاظمت فوق كل عظمة ، وتجاوزت الكواكب والنجوم ارتفاعاً وضياء وهدى ، فقد حوى منهج الدعوة من الشرائع والأوامر الإلهية والأفعال العملية ما لا تحويه أي مناهج أخرى فيما يختص بمعاملة غير المسلمين ، وذلك في وقت التمكين في الأرض ، لأن الإسلام ينظر إلى إنسانية الإنسان بغض النظر عن دينه أو جنسه . ولعل هذه الأحداث التي سنوردها خير شاهد على هذه المعاملة التي فتحت القلوب والعقول للإقبال على الإسلام والدخول في دين الله أفواجاً .

روى ابن إسحاق وغيره أن رسول الله (ﷺ) اقترض من يهودي كيلاً معلوماً إلى أجل معلوم من تمر ، فخرج الرسول (ﷺ) في جنازة ، فلما وضع الميت وحثوا عليه التراب ، قام اليهودي فقال : يا محمد : ألا تقضيني تمري ؟ فوالله لا أعلمكم يا بني عبد المطلب إلا تمطلون الناس بحقوقهم ، فقال عمر : والله لولا مجلسه لوجأت أنفك ، فقال الرسول (ﷺ) " يا عمر ، أنت إلى غير هذا أحوج ، أن تأمره فيحسن طلبه ، وتأمرني فأحسن قضاءه ، انطلق معه إلى حائط كذا وكذا فلتوفه ماله ، وكل له كذا وكذا صاعاً بشتمك إياه " [١] .

---

[١] منهج الرسول في دعوة أهل الكتاب للدكتور محمد بن سيدي بن الحبيب الشنقيطي ، ط دار القبلة للثقافة الإسلامية (١ / ٦٥) .

فمع غلظة اليهودي وسوء أدبه إلا أن الرسول (ﷺ) رد عليه بالخلق القويم ، وأوضح للفاروق عمر خطأه وأمره بأن يعطي اليهودي حقه وزاده فوق حقه بسبب ترويعه له .

وكأنــه (ﷺ) يقول لليهودي هذا هو الإسلام الذي تأبى الدخول فيه وتحاربــه .. ولم تكن هذه المرونة في حادثة معينة وإنما نجد الأعجب من ذلــك ، فقد روى البخاري بسنده أن المقداد بن عمرو الكندي سأل الرسول -عليه الصلاة والسلام-فقال : يا رسول الله إن لقيت كافراً فاقتتلنا ، وضرب يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة وقال : أسلمت لله ، أأقتله بعد أن قالها ؟ فقــال رسول الله (ﷺ)" لا تقتله " قال : يا رسول الله فإنه طرح إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها أأقتله ؟ قال : لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال " [١] .

قال القاضي عياض في تعليقه على حديث المقداد : " معناه أنه مثله فــي مخالفة الحق وارتكاب الإثم وإن اختلف النوع في كون أحدهما كفراً والآخر معصية ، وقيل المراد إن قتلته مستحلاً لقتله فأنت مثله في الكفر ، وقــيل المــراد بالمثلــية أنه مغفور لــه بشهادة التوحيد وأنت مغفور لك بشهود بدر " .

هــذا ، وقد حدث أسامة بن زيد أن الرسول (ﷺ) بعثه ضمن سرية لحــرب أنــاس من " جهينة " ، فلما استطاع هو وأنصاري معه النيل من رجل من الأعداء ، قال : لا إله إلا الله ، قال : فكف عنه الأنصاري ،

---

[١] فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٢ / ١٨٧) حديث رقم : ٦٨٦٦ .

فطعنته برمحي حتى قتلته ، قال : فلما قدمنا بلغ ذلك النبي (ﷺ) فقال لي : يا أسامة ، أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال : قلت يا رسول الله ، إنما كـــان متعوذاً ، قال : فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم (١) .

وإنـــنا لنتســاءل : هل هناك دين أو قانون في العالم بأسره يحمي القـــاتل أو المحارب من الإيذاء والقتل لنطقه بكلمات قليلة قالها بنية النجاة فقط؟!!

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٢ / ١٩١) حديث رقم : ٦٨٧٢ .

سادساً : المرونة في دعوة أهل المعصية

المجتمع الإسلامي يضم بين أفراده مراتب من المسلمين ، وطبقات من المؤمنين ، منهم قوي الإيمان التقي الورع ، الصوام القوام ، صاحب الذكر ، كثير النوافل والفضائل ... ومنهم ضعيف الإيمان كثير الذنوب والأخطاء ، الذي قد يرتكب الكبائر .. وبينهما المقتصد في الذكر والطاعة الخالط للعمل الصالح بالعمل السيئ .

والدعاة إلى الله تعالى هم أطباء الروح ، وهم الذين يشخصون الداء ويضعون الدواء الذي يشفي الصدور ، ومن ثم لا يتجاهلون في خطابهم الدعوي أحداً خاصة أهل المعاصي والذنوب ، ومن الخطأ الكبير أن يبتعد الداعية أو ينفصل أو يهجر أهل المعصية ، بل عليه أن يتقرب إليه وأن يرغبه في الإسلام وفي الطاعة ، ويفتح له باب الرجاء في رحمة الله ومغفرته . قال تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ .. ﴾ (١) .

وفي الحديث الذي رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم " (٢) . والمنهج الذي يجب على الدعاة أن يتبعوه مع أهل المعصية ينحصر من وجهة النظر الخاصة في أمرين ، في ترغيبهم وترهيبهم وعدم هجرتهم .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٥٣ ـ ٥٤ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب التوبة باب سقوط الذنب بالاستغفار (١٧ / ٦٨) حديث رقم : ١١ .

أ- الترغيب والترهيب :

علـــى الداعـــية إلى الله تعالى أن يسلك مع العصاة مسلك الترغيب والترهيـــب حســـب الحالة التي عليها المدعو فإن كان مسرفاً في عصيانه مستهيناً بخطئه ناسبه الترهيب ، وإن كان يريد التوبة ويطمح إلى التطهير ناســـبه الترغيب ، حتى لا يتمكن اليأس من قلب العاصي خاصة إذا كان مسرفاً ويتمنى العودة إلى الله-تعالى-، فقد جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله (ﷺ) قال : (فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عـــن أعلـــم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهـــل الأرض ، فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فـــإن بهـــا ناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض ســـوء . فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك في صورة آدمـــي فجعلـــوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهـــو لـــه فقاســـوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة) [١] .

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي (١٧ / ٨٢) باب قبول توبة التائب وإن كثر قتله ، حديث رقم : ١٥ .

ففــي هذا الحديث يبين رسول الله(ﷺ)أن أسلوب الترغيب هو الذي يجب أن يتبع مع مثل هذه الحالات ، لأن الله(ﷻ) رغب عباده في التوبة في كتابه وعلى لسان رسوله ، من ذلك ما رواه الشيخان والترمذي أن رسول الله (ﷺ) قال : " لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية -- صحراء لا نبات فيها – مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأســه فـنام نومــة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الجــوع والعطش قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضــع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده " (١) .

ب- عدم هجران أهل المعاصي والآثام :

مهمة الداعية شاقة وعسيرة ، فقد يكون نقل جبل أسهل على المرء من توجيه إنسان إلى خطوة واحدة يكرهها ، ولذلك كان على الداعية وهو يسلك أسلوب الترغيب والترهيب مع العاصين ، ألا يبتعد أو ينفصل عنهم ، لأن الكثير منهم قد يقع في المعصية ويرتكب الكبيرة وهو مع ذلك محب لله ولرســوله ، فلهــذا علمــنا رسول الله ﷺ أن نأخذ بأيديهم للخروج من معاصــيهم ، وذلك كالذي حده الرسول في الخمر مرات فيعود ويشرب ، ومع ذلك لم يفصله النبي(ﷺ)ولم يهجره ، بل يمازح الرسول(ﷺ)ويضاحكه ويجالسه في المسجد ، فما تضايق منه ، وما اعتزله ، وما تجاهله ... ولما

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات باب التوبة (٥٨٣٣) ومسلم في كتاب التوبة (٤٩٢٩) والترمذي في كتاب صفة القيامة (٢٤٢١) ، (٢٤٢٢) .

تضـــايق بعض الأصحاب منه ، ومن كثرة شربه ، وكثرة إقامة الحد عليه فلعـــنوه ، فزجـــرهم رسول الله (ﷺ) ، وأغضبه ذلك فنهاهم وهو يشهد له بحبه لله ولرسوله " .

ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً كان على عهـــد النبي (ﷺ) وكان اسمه عبد الله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يضحك رسول الله (ﷺ)، وكان النبي قد جلده في الشراب فأوتى به فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ، ما أكثر ما يؤتى به .

فقال النبي (ﷺ) : " لا تلعنوه فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله " (١) .

وأخـــرج أبو يعلى أن حماراً هذا كان يهدي لرسول الله (ﷺ) العكة من السمن والعسل ، فإذا جاء صاحبه يتقاضاه جاء به إلى النبي (ﷺ) فقال " أعط هذا متاعه ، فما يزيد النبي (ﷺ) أن يبتسم ويأمر به فيعطى " (٢) .

وفي حديث علي بن عبد الله بن جعفر قال : حدثنا أنس بن عياض ... عن أبي هريرة قال : " أتى النبي (ﷺ) بسكران ، فأمر بضربه ، فمنا مـــن يضـــربه بـــيده ومنا من يضربه بنعله ومنا من يضربه بثوبه ، فلما انصـــرف قال رجل : ما له أخزاه الله ! فقال رسول الله (ﷺ) : لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم " (٣) .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب الحدود (١٢ / ٧٥) حديث رقم : ٦٧٨٠ .
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٢ / ٧٧) .
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب : الحدود ، باب ما يكره من لعن شارب الخمر (١٢ / ٧٥) حديث رقم : ٦٧٨١ .

فهـذه الأحاديـث تدل على أن رسول الله (ﷺ)هدم فكرة العزل أو الهجر للمذنبين ، حتى لا يعين الشيطان عليهم .

وهكـذا فعل أئمة العلم والدين من بعده (ﷺ)، فقد روى أبو يوسف رحمه الله تعالى أن أبا حنيفة النعمان كان له جار ، وكان يشرب في الحانة ثم يرجع بالليل يتغنى ويقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغـر

فرجع ذات ليلة فأخذه الطائف – أي رجل الأمن – فحبسه ، ففقد أبو حنيفة صـوته فسـأل عنه ، فقيل له : حبسه الطائف ، فتكلم فيه أبو حنيفة حتى أطلق ، ثم قال له : يا فتى ! رأيتنا أضعناك [١] .

وقـبل أن نترك هذا المعلم نحب أن نوضح ما قد يستدل به البعض علـى وجـوب هجـر أهل العاصي بحادثة الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تـبوك ، فهذا لا يدل على العموم ، ولا يصلح إنزاله لكل الأزمنة والأمكنة والأحـوال فيكون قاعدة عامة مستمرة ، وإنما هو – والله أعلم – من قبيل سـنن الأعـيان ووقـائع الأحوال التي تختص بذات الحالة فقط ، لأنه لم يحدث هجر في تاريخ الإسلام إلا هذه الواقعة ، مع الأخذ في الاعتبار أن في عصر النبوة وقع ما هو أعظم خطراً وشراً على المسلمين وعلـى

---

[١] انظر : من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق ، ص ٥١ .

دولتهم من تخلف الثلاثة عن غزوة تبوك مثل ما حدث من حاطب بن أبي بلتعة ومع ذلك لم يهجر .

والهجــر لا يكــون إلا للمبتدعين ، وفرق بين المبتدع والمذنب ، فالمبتدع هو صاحب البدعة في أصول الدين لا الفروع ، كالقدر والمرجئ والمتكلم في القرآن بالخلق وغيرهم .

الفصل الرابع

أسس المنهج الدعوي

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : كيفية التثبت من النص وما يترتب عليه .

التثبت من النص القرآني .

التثبت من النص النبوي .

ما يترتب على عدم التثبت من النص

المبحث الثاني : المنهج الصحيح في فقه النص

ضوابط فقه النص .

أهمية فقه النص .

المبحث الثالث : الفهم الشاذ للنص .

أسس المنهج الدعوي

الإســـلام هو المنهج الإلهي الرباني الذي شرعه الله لعباده ورضيه لهم ، وأسس هذا المنهج الإلهي تنحصر في القرآن الكريم والسنة النبوية ، فهما المصدران الوحيدان للتعرف على أحكام الإسلام وتعاليمه ، في العقائد والتصـــورات والعبادات والتشريعات والأخلاق والآداب ، وشتى مجالات الحياة .

والداعـــية إلى الله – تعالى– لا ينجح في دعوته إلا إذا كان متثبتاً مـــن نصـــوص القرآن والسنة ، وفاهماً لهما ، ومن ثم فسوف نتحدث عن كيفـــية التثبت من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية ، وعن فقه النص وذلك من خلال ما يلي :

كيفية التثبت من النص القرآني

القـــرآن الكريم هو كلام الله تعالى الموحى به إلى رسوله محمد ﷺ المحفـــوظ في الصدور ، المتلو بالألسنة ، المكتوب في المصاحف ، الذي جاءنا بالتواتر ، المحفوف بالتكريم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) .

ومـــع هـــذا فعلى الداعية أن يتثبت من نص القرآن الكريم حتى لا يضـــع آيـــة مكـــان آية ، أو يختم آية بجزء من آية أخرى ، ولذلك يقول العلماء : إن التثبت من النص يكون " بالعودة إلى المصحف الشريف ، عن

---

(١) سورة فصلت الآية : ٤٢ .

طريق المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " (١) ، والوقوف على درجة الحديث بالنسبة للسنة ، فلا نأخذ إلا ما ثبت عن رسول الله (ﷺ) (٢) .

هذا هو المراد من النص المتثبت منه ، ولكن كيف يتثبت من النص القرآني والنص النبوي ؟

بالنسبة للنص القرآني : فالقرآن الكريم جاء بطريق التواتر ، فالتثبت منه يكون بالتثبت من النقل وذلك بالعودة إلى المصحف الشريف حتى ولو كان الإنسان حافظاً للقرآن الكريم حفظاً جيداً ، فالقرآن به متشابه ، وكما يقول حفاظه : القرآن غالب دائماً . ويعنون بذلك أن الحافظ له مهما كانت درجة حفظه لا غنى له عن العودة إلى المصحف الشريف (٢) .

ماذا يحدث لو لم يتثبت الداعية من نص القرآن الكريم ؟ لو لم يتثبت الداعية من النص القرآني واعتمد على ذاكرته ، أو على كتاب مطبوع فلن يسلم من الخطأ بأن يجعل آية مكان آية أو أن يحذف كلمة أو يزيدها وكفى بهذا جرماً علمياً ، فإذا كان الداعية هو الذي يسمع الناس له ويأخذون عنه يقدم عن غير عمد – لأنه لو قدم عن عمد الخطأ في القرآن فقد كفر – آية بها زيادة أو نقصان أو آية أخرى ، لا شك أنه سيفسر الآية

---

(١) من هذه المؤلفات :

أ - إرشاد الحيران لمعرفة آي القرآن ، إبراهيم بن عبد الله الأنصاري . ب – إرشاد الراغبين في الكشف عن آي القرآن الكريم ، محمد منير الدمشقي ج – تذكرة الأريب في تفسير الغريب ، أبو الفرج بن الجوزي .

(٢) د/ حسين مجد خطاب ، منهج الدعوة إلى الله تعالى ، ص ٥٤ .

(٢) راجع : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

وفق ما هي عليه وبذلك يفسد العملية الدعوية من جذورها [١] .

وقد تحدث العلماء عن الأخطاء التي وقع فيها بعض المفسرين العظام بسبب السهو في عدم التثبت من نص الآية التي تتشابه مع آية أخرى ، ومثال ذلك أن الإمام الرازي وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [٢] ، ولكنه فسرها على أنها " لا تتخذوا من دونكم بطانة " وأخذ الفخر الرازي يبين الحكمة في تقديم " من دونكم " على " بطانة " وأوضح أن محط النهي هو: من " دونكم " لا " بطانة " فلذلك قدم الأهم [٣]

ولو عاد إلى المصحف الشريف ولم يعتمد على ذاكرته ما حدث هذا التوهم المشين لأمانته العلمية ، والرجل مفسر لا يشق له غبار ، وأيضاً ما وقع لأبي حيان حين فسر في سورة الأنبياء كلمة " زبراً " بعد قوله تعالى " وتقطعوا أمرهم بينهم " وإنما هي في سورة " المؤمنون " ، وترك تفسيرها هناك ، وتبعه على هذا السهو رجلان هما : الصفاقسي ، وشهاب الدين الحلبي المعروف بابن السمين .

ويذكر الدكتور الزحيلي أن أحد قارئ كتاب تربية الأولاد في الإسلام (لعبد الله علوان رحمه الله) قد حصر الأخطاء التي وقعت في

---

(١) منهج الدعوة إلى الله ، ص ٥٨ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١١٨ .
(٣) راجع : استخراج الآيات والأحاديث ، د / عبد الله الزحيلي ، ص ٣٧ ، ٣٩ ، طبعة أولى ١٤١٢ .

هــذا الكــتاب فوجدها خمسة عشر خطأ ، ولم تكن أخطاء مطبعية ، فمثلاً ذكــر فــي الآية رقم : ٢٧ – ٢٨ من سورة النور قوله تعالى : " إن كنتم تعلمــون " والصــواب : " لعلكــم تذكــرون " وفي سورة البقرة في الآية رقــم : ٢٣٧ ذكــر قولــه تعالى: " وإن طلقتم النساء " والصواب " وإن طلقتموهن " [١] .

إن مطلب الدقة يقتضي الأخذ عن المصحف مباشرة ويقتضي أيضاً التثبت في النقل منه ، مع تمييز الآيات عن غيرها من الكلام [٢] .

---

[١] المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ٣٦ .
[٢] راجع : منهج الدعوة إلى الله ، ص ٥٩ ــ ٦٠ .

الثاني : كيفية التثبت من النص النبوي :

مـــن رحمة الله بالأمة الإسلامية أن الله وهبها علماء أفذاذاً اهتموا بأحاديث النبي اهتماماً عظيماً لا مثيل لـــه في أي دين آخر حتى كانوا آية مـــن آيـــات قدرة الله تبارك وتعالى ، كما كانوا آية في الذاكرة والذكاء ، لا يوجد لهم نظير في التاريخ .

وعلى سبيل المثال نذكر هنا قصة من حياة الإمام البخاري يرويها أبو أحمد ابن عدي الحافظ فيقول : سمعت عدداً من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد ابـــن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلـــى عشرة أنفس لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضر المجلس أن يلقـــوا ذلـــك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين .

فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأل البخاري عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخاري " لا أعرفه " فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ ، والبخاري يقول " لا أعرفه " وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ، ويقولون " فهم الرجل " ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير ، وقلة الحفظ . ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال " لا أعرفه " فســـأله عن آخر فقال " لا أعرفه " ، فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول لا أعرفه ، ثم انتدب الثالث والرابع إلى

تمـــام العشـــرة ، حـــتى فـــرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لا يزيدهم على" لا أعرفه " فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول فقـــال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كـــذا ، وصـــوابه كـــذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشـــرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقرّ الناس له بالحفظ ، فأذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة : " قلت : هنا يخضع للـــبخاري ! فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ، فإنه كان حافظاً بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة [١] .

هكذا كان علماء الأمة الذين قيضهم الله لحفظ سنة نبيه (ﷺ) بعد أن دونت في عهد الرسول وعهد الصحابة والتابعين تدويناً خاصاً في صحف خاصة لأناس مخصوصين ، وبعد أن حفظت في الصدور من كثيرين من أمـــثال الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر الملقب بأبي هريرة ، وفي الحديـــث الـــذي رواه الـــبخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه قال : " ما من أصـــحاب النبي (ﷺ) أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب [٢] .

فهـــذا الحديـــث يدل على حفظ السنة في الصدر والسطر حيث إن النبي (ﷺ) حضهم على أن يستعينوا في الحفظ بالكتابة ، فعن أبي هريرة

---

[١] راجع : هدي الساري مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، ص ٤٨٦ .

[٢] فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١ / ٢١٧) .

أن رجلاً من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله (ﷺ) فلا يحفظه ، فيسأل أبــا هريرة فيحدثه ثم شكى قلة حفظه إلى الرسول (ﷺ) فقال له : استعن على حفظك بيمينك وأومئ بيده إلى الخط [١] .

والأحاديــث التي دلت على تدوين السنة في عصر الرسول (ﷺ) في صــحف خاصة كثيرة لا يتسع البحث لسردها ، وهي تفيد أن السنة النبوية دونــت فــي عصر الرسول (ﷺ) دون ترتيب أو تنظيم ومن هذه الصحف الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص ، وصحائف أنس بن مالك وصــحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري ، والصحيفة التي كتبت فيها أحكام الــزكاة ومــا تجــب فيه مقادير ذلك وكانت في عهد الرسول (ﷺ) وبقيت محفوظــة في بيت أبي بكر الصديق [٢] ، وصحيفة سمرة بن جندب [٣]. هــذا بخلاف الأحاديث التطبيقية العملية التي علمت أصحابه كيف يصلون ويصومون ويزكون ويحجون وغير ذلك .

ولهذا نشأ علم الحديث بقسميه علم الحديث رواية وهو الذي يبحث فــيما أضــيف إلى النبي (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلقية وكذا ما أضيف إلى الصحابة والتابعين في بعض الآراء .

وعلــم الحديــث دراية وهو العلم الخاص بحال الرواة وشروطهم وأصناف المرويات وما يتعلق بها [٤] .

---

[١] أخرجه الترمذي من طريق أبي هريرة (٢ / ٣٥٣) .
[٢] الدارقطني كتاب الزكاة ، ص ٢٠٩.
[٣] انظر تهذيب التهذيب (٤ / ١٩٤) .
[٤] راجع : تيسير مصطلح الحديث ، د / محمد محمود أحمد هاشم ، ص ٣٩ .

ما يترتب على عدم التثبت من النص :

أصبح التثبت من حديث النبي (ﷺ)في متناول الداعية وما عليه إلا أن يرجع إلى ما كتبه العلماء في هذا الخصوص ، لأن الداعية لو لم يتثبت من نصوص السنة . وجاء بأحاديث لم تصح نسبتها إلى رسول الله (ﷺ) فسوف يترتب على ذلك مشاكل خطيرة ، منها ما يلي :

١ – لن يثق المدعو في الداعية الذي لم يتثبت من النص النبوي ، وبذا تفقد العملية الدعوية أهم أركانها وهو الداعية ، وتتعمق المشكلة الرئيسة في العمل الدعوي وهي أن المشكلة مشكلة دعاة !! ليس هذا فقط بل سيعمم المدعو الحكم على بقية الدعاة – وما أيسر التعميم – ويقدم مبررات لما يذهب إليه قائلاً : إن هذا الداعية وغيره يتاجرون بالترغيب والترهيب ويتلاعبون بعواطفنا .

٢ – من الدعاة من يرى في هذه النوعية مقدرتها على استمالة بعض المدعوين خاصة العوام ، وهذه الرؤية تنطوي على خطر جسيم وكيف لا ، ولسان حالها يقول : الصحيح لا يكفي ومن ثم فنحن في حاجة إلى إضافات من هنا ومن هناك ، وأين هذا من قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [١] .

٣ – الداعية الذي لم يتثبت من النص النبوي يأتي بخرافات تصطدم بالبديهيات ، وتنال من مكانة الأنبياء المعصومين ، والملائكة المقربين ، وتفسر كتاب الله بما لا يليق بمقامه-جل في علاه-، وبذا يصير

---

[١] سورة المائدة ، الآية : ٣ .

العمل الدعوي عرضة لأي هجمة من هجمات الخصوم ، ليبينوا لأنصارهم مدى معقولية اللادين ، وخرافة الدين وما جاء به !! [١] .

نماذج تدل على خطورة عدم التثبت من النص

النموذج الأول : ما قيل عن فتنة نبي الله سليمان (عليه السلام) :

في تفسير البغوي لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [٢] ، يذكر البغوي عن سليمان(عليه السلام)قصة أسطورية طويلة تتنافى مع عقائد الدين وتطعن عصمة الأنبياء والمرسلين فيقول : " ولقد فتنا سليمان : اختبرناه وابتليناه بسلب ملكه ، وكان سبب ذلك : ما ذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه ، قال : سمع سليمان-عليه السلام- بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها " صدون " بها ملك عظيم الشأن ولم يكن للناس عليه سبيل لمكانه في البحر ، وكان الله قد أتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر ، إنما يركب إليه الريح ، فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها ، وسبى ما فيها ، وأصاب – فيما أصاب – بنتاً لذلك الملك يقال لها " جرادة " لم ير مثلها حسناً وجمالاً ، فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام ، فأسلمت على جفاء منها ، وقلة فقه ، وأحبها حباً لم يحبه شيئاً من نسائه ، وكانت – على منزلتها عنده – لا يذهب حزنها ، ولا يرقأ دمعها فشق ذلك على سليمان .

---

[١] راجع : منهج الدعوة إلى الله ، ص ٦١ .
[٢] سورة ص الآية : ٣٤ .

فقـــال لهـــا : ويحك ، ما هذا الحزن الذي لا يذهب والدمع الذي لا يرقأ ؟ قالــت : إن أبي أذكره ، وأذكر ملكه ، وما كان فيه ، وما أصابه فيحزنني ذلك ، قال سليمان : فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه ، وسلطاناً هو أعظـم من سلطانه ، وهداك للإسلام ، وهو خير من ذلك كله ، قالت : إن ذلــك كذلك ولكني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن ، فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا لي صورته في داري التي أنا فيها ، أراها بكرة وعشيا لرجوت أن يذهب ذلك حزني ، وأن يسليني عن بعض ما أجد في نفسي ، فأمــر سليمان الشياطين فقال : مثلوا لها صورة أبيها في دارها ، حتى لا تــنكر منه شيئاً ، فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه ، إلا أنه لا روح فيه فعمدت إليه حين صنعوه ، فأزرته وقمصته وعصمته وردته بمثل ثيابه التي كان يلبس ، ثم كان إذا خرج سليمان من دارها تغدو إليه في ولائدها حــتى تسجد له ويسجدون له ، كما كانت تصنع به في ملكه ، وتروح في كل عشية بمثل ذلك ، وكان سليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً وبلـــغ ذلك " آصف بن برخيا " وكان صديقاً له ، وكان لا يرد عن أبواب ســليمان أي ســاعة أراد دخول شيء من بيوته ، حاضراً كان سليمان أو غائباً ، فأتاه فقال : يا نبي الله ، كبر سني ، ودق عظمي ، ونفد عمري ، وقد حان مني الذهاب فقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت ، أذكر فيه من مضـــى مـــن أنبياء الله ، وأثني عليهم بعلمي فيهم ، وأعلم الناس بعض ما كـــانوا يجهلون من كثير أمورهم ، فقال " افعل " ، فجمع له سليمان الناس فقـــام فيهم خطيباً ، فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى ، فأثنى على كل نبي بما فيه ، وذكر ما فضله الله به حتى انتهى إلى سليمان فقـــــال : ما

أحكمك في صغرك ، وأورعك في صغرك ، وأفضلك في صغرك ، وأحكم أمـرك فـي صغرك وأبعدك عن كل ما يكره الله ـتعالى ـ في صغرك ، ثم انصـرف . فوجد سليمان (عليه السلام) في نفسه من ذلك حتى ملئ غضباً ، فلما دخـل سليمان داره أرسل إليه فقال : يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله فأثنيـت علـيهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم ، فلما ذكرتنـي جعلت تثني عليّ بخير في صغري ، وسكت عما سوى ذلك من أمـري في كبري ، فما الذي أحدثت في آخر أمري ؟ فقال : إن غير الله ليعـبد فـي دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة ، فقال : في داري؟، فقال : في دارك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد عرفت أنك ما قلت الـذي قلـت إلا عن شيء بلغك ، ثم رجع سليمان إلى داره ، وكسر ذلك الصـنم ، وعاقـب تلك المرأة وولائدها ، ثم أمر بثياب الطهيرة فأتى بها وهي ثياب لا تغزلها إلى الأبكار ، ولا ينسجها إلا الأبكار ، ولا تغسلها إلا الأبكـار ، لم تمسها امرأة قد رأت الدم ، ثم لبسها ، ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده ، فأمر برماد ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله (عز وجل) حتى جلس علـى ذلك الرماد ، وتمعك فيه بثيابه تذللاً لله ـتعالى ـ وتضرعاً إليه ، يبكي ويدعـو ويسـتغفر مما كان في داره ، فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى ثم رجع إلى داره .

وكانت له أم ولد يقال لها " الأمينة " كان إذا دخل مذهبه [١] أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمس

---

[١] يراد بالمذهب هنا مكان قضاء الحاجة .

خاتمه إلا وهو طاهر ، وكان ملكه في خاتمه ، فوضعه يوماً عندها ثم دخل مذهبه فأتاها الشيطان صاحب البحر واسمه " صخر" على صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً ، فقال : خاتمي ، أمينة ، فناولته إياه ، فجعله في يـــده ثم خرج ، حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، وخرج سليمان فأتى الأمينة ، وقد غيرت حاله وهيئته عند كل من رآه ، فقال " يا أمينة خاتمي " قالت : من أنت ؟ قال : أنا سليمان بن داود ، قالت : كذبت ، فقد جاء سليمان فأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته ، فخرج فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل ، فيقول : أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبوه ويقولون " انظروا إلى هذا المجنون ، أي شيء يقول ؟ يزعم أنه سليمان " .

فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر ، فكان ينقل الحيتان لأصحاب الـــبحر إلـــى الســـوق ، فيعطونه كل يوم سمكتين ، فإذا أمسى باع إحدى سمكتين بأرغفة ، ويشوي الأخرى فأكلها ، فمكث على ذلك أربعين صباحاً – عدة ما كان عبد الوثن في داره – فأنكر " آصف " وعظماء بني إسرائيل حكـــم عـــدو الله الشيطان في تلك الأربعين ، فقال آصف : يا معشر بني إســـرائيل ، هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت ؟ قالوا : نعم ، قـــال : أمهلونـــي حـــتى أدخل على نسائه ، فأسألهن ، هل أنكرن منه في خاصَّـــة أمره ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته ، فدخل على نسائه فقال : ويحكن ، هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرنا ، فقلن أشـــــده ،

مـــا يدع منا امرأة في دمها ولا يغتسل من الجنابة ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن هذا لهو البلاء المبين ، ثم خرج على بني إسرائيل ، فقال : ما في الخاصة أعظم مما في العامة .

فلمـــا مضــــى أربعـــون صباحاً طار الشيطان عن مجلسه ، ثم مر بالـــبحر ، فقـــذف الخاتم فيه ، فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين ، وقد عمـــل لهِ ســـليمان صـــدر يومه ذلك حتى إذا كان العشي أعطاه سمكته ، وأعطاه السمكة التي أخذت الخاتم ، فخرج سليمان بسمكتيه فباع التي ليس في بطنها بالأرغفة ، ثم عمد إلى السمكة الأخرى ، فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه في جوفها ، فأخذه فجعله في يده ، ووقع ساجداً وعكفت عليه الطير والجـــن وأقـــبل عليه الذي كان قد دخل عليه ... فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه ... " [١] .

إن هـــذا الحديـــث الـــذي ذكره البغوي عن وهب لا أساس له من الصحة وهو من الأباطيل والخرافات والأساطير ، بل هو حديث يحمل في طياته أدلة البطلان والاختلاق ولا يقره عقل ولا دين .

ولـــم يقـــع في هذا البغوي فقط وإنما شاركه الكثير من المفسرين والمحدثيـــن ، فقد أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (في تفسير " ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ") ولد لسليمان ولد فقال للشيطـــــان

---

[١] راجع : معالم التنزيل للإمام البغوي على هامش تفسير الخازم (٦ / ٤٦ ـ ٤٨) ، ط التجارية ، وانظر : الدر المنثور للسيوطي (٥ / ٣٠٩ ـ ٣١١) .

تواريه من الموت ؟ قالوا نذهب به إلى المشرق ، فقال : يصل إليه الموت قالوا فإلى المغرب ، قال : يصل إليه الموت ، قالوا : إلى البحار ، قال : يصل إليه الموت ، قالوا : نضعه بين السموات والأرض ، قال : نعم ، ونزل عليه ملك الموت فقال : إني أمرت بقبض نسمة طلبتها في البحار ، وطلبتها في تخوم الأرض فلم أصبها فبينا أنا قاعد أصبتها فقبضتها ، وجاء جسده حتى وقع على كرسي سليمان فهو قول الله ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (١) .

فهذا الحديث موضوع على رسول الله (ﷺ) وهو من عمل بعض الزنادقة وقد نبه على وضعه الإمام الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي ووافقه السيوطي على وضعه ، ولا يشك في وضعه إلا من يشك في عصمة الأنبياء لأنه ينسب إلى سليمان أموراً لا تليق بمؤمن من عامة الناس ، منها ما يلي :

١ – أنه يستشير الشيطان في الهرب من الموت !!

٢ – يعتقد أن وجود ابنه بين السماء والأرض يحول بينه وبين الموت !! وهذا نقص في الإيمان .

٣ – أنه ينسب الجهل إلى من يعرف السر وأخفى ، ويستحيل أن ينسب هذا إلى الله من إنسان عادي فكيف يكون من نبي كريم ؟!

---

(١) سورة ص الآية : ٣٤ .

التفسير المقبول في فتنة نبي الله سليمان (عليه السلام) :

والصحيح المتعين في تفسير الفتنة ما جاء في الصحيحين ، واللفظ للبخاري عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) قال : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، ولم تحمل واحدة منهن شيئاً إلا واحدة جاءت بولد ساقط إحدى شقيه ، فقال النبي (ﷺ) : لو قالها لجاهدوا في سبيل الله أجمعين [١] .

ففتنة سليمان (عليه السلام) هي في أنه لم يقل إن شاء الله ، لأن تركه للمشيئة غفلة عن الله تستحق البلاء والمؤاخذة قال تعالى:﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إلا أن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [٢] .

فلما لم يقل عامله الله بنقيض مقصوده ، فلم تحمل من نسائه إلا واحدة بولد غير كامل الخلقة وضعته القابلة على كرسي سليمان ليراه ، وليعلم أنه ما كان ينبغي له في هذا المقام الذي يجب فيه القصد الخالص إلى الوهاب ـ سبحانه وتعالى ـ أن يترك المشيئة التي كانت هي الأولى في هذه الحال [٣] .

وهذا هو ما يليق بعصمة سيدنا سليمان وما يتفق مع العقول السليمة ولذا فقد اختار جمهور المفسرين القدامى هذا الحديث تفسيراً للآية .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء (٦ / ٥٢٧ ـ ٥٢٨) .
(٢) سورة الكهف الآية : ٢٣ .
(٣) راجع : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، د / محمد بن محمد أبو شهبة ، ط مجمع البحوث الإسلامية ص ٣٧٧ ـ ٣٨٠ .

النموذج الثاني : فيما نسب إلى نبي الله يوسف (عليه السلام):

من الأمثلة التي تقدح في عصمة الأنبياء وقد ورد في كتب التفسير بالمأثور أو تفسير القرآن بالسنة ويجب على الدعاة إلى الله تعالى أن يتثبتوا من هذه النصوص ، ومن درجة روايتها قبل أن ينقلوها إلى المدعوين ، من ذلك ما نسب إلى نبي الله يوسف (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴾ [١]

فقد ورد في تفسير هذه الآية إسرائيليات ومرويات مختلفة ومكذوبة ولا يصح نسبتها إلى النبي (ﷺ) ما أخرجه ابن جرير في تفسيره والسيوطي في الدر المنثور ، قال السيوطي : وأخرج سعيد بن منصور والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي في الضعفاء وأبو الشيخ ، والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) قال : " جاء بستاني اليهودي إلى النبي (ﷺ) فقال : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف (عليه السلام)، ساجدة له ، ما أسماؤها ، فسكت النبي (ﷺ)، فلم يجبه بشيء ، فنزل جبريل (عليه السلام) فأخبره بأسمائها فبعث رسول الله (ﷺ) إلى البستاني اليهودي ، فقال : هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ قال : نعم ، قال : حرثان ، والطارق ، والزيال ، وذو الكفتان ، وقابس ودينان ، وهودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح والفريخ ، والضياء والنور ، رآها في أفق السماء ساجدة له ، فلما قص

---

[١] سورة يوسف ، الآية : ٤ .

يوسف على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد " فقال اليهودي : إي والله إنها لأسماؤها " [١] .

فهذا الحديث مختلق وموضوع على رسول الله (ﷺ) ولا يصح للداعي إذا قرأ أمثال هذا الحديث في كتب التفسير أن ينقلها إلى الناس دون التحقق والتثبت من النص حيث إن العلماء حكموا على هذا الحديث بالوضع ، كما ذكر الإمام الذهبي في كتابه " ميزان الاعتدال " .

ويقول الدكتور محمد أبو شهبة عن هذا الحديث : إنه من الإسرائيليات ، وألصقت بالنبي زوراً ، ثم إن سيدنا يوسف رأى كواكب بصورها لا بأسمائها ، ثم ما دخل الاسم فيما ترمز إليه الرؤية ..

ومن الإسرائيليات المكذوبة أيضاً والتي لا توافق عقلاً ولا نقلاً ما ذكره ابن جرير في تفسيره وصاحب الدر المختار وغيرهما من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [٢] ، ومن ذلك أيضاً ما نسبوه إلى النبي (ﷺ) في تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ فقد أخرج الحاكم في تاريخه وابن مردويه والديلمي عن أنس (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قرأ هذه الآية " ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب " قال : لما قال يوسف ذلك قال له جبريل (ﷺ): ولا يوم هممت بما هممت به ، فقال : وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، قال : وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله ، وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم عن حكيم بن جابر ، في قوله : " ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب " قال

---

[١] تفسير ابن جرير (١٢ / ٩٠ ، ٩١) والدر المنثور (٤ / ٤) .
[٢] سورة يوسف الآية : ٢٤ .

جـبريل : ولا حيـن حللـت السراويل ... إلى غير ذلك من المرويات المكذوبة ، والإسرائيليات الباطلة ، التي خرجها بعض المفسرين الذين كان مـنهجهم ذكر المرويات وجمع أكبر قدر منها ، سواء منها ما صح وما لم يصـح ، والإخباريون الذين لا تحقيق عندهم للمرويات ، وليس أدل على ذلـك مـن أنهـا لم يخرجها أحد من أهل الكتب الصحيحة ، ولا أصحاب الكتب المعتمدة الذين يرجع إليهم في مثل هذا .

السياق القرآني يبطل هذه الأباطيل :

الـناظر إلى السياق القرآني يجد أنه واضح الدلالة في إبطال مثل هذه الأكاذيب ، فقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [١] ليس مـن مقالة سيدنا يوسف (عليه السلام) وإنما هو من مقالة امرأة العزيز ، وهو ما يتفق وسياق الآية ، ذلك أن العزيز لما أرسل رسوله إلى يوسف لإحضاره مـن السـجن قال له : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهـن فاحضـر النسوة وسألهن وشهدن ببراءة يوسف ، ولم تجد امرأة العزيـز بداً من الاعتراف فقالت: " الآن حصحص الحق ..." إلى قوله " ومـا أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ... " فكل ذلك من قولها ، ولم يكن يوسف حاضراً ثمَّ ، بل كان في السجن فكيف يعقل أن يصدر منه ذلك في مجلس التحقيق الذي عقده العزيز ؟

وقد انتصر لهذا الرأي الذي يوائم السياق الإمام ابن تيمية وألف في ذلك تصنيفاً على حده ، ويقول الإمام ابن كثير في تفسيره : " ذلك ليعلـم

---

[١] سورة يوسف الآية : ٥٢ .

أني لم أخنه بالغيب " أن المرأة تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسي ، ليعلم زوجـــي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحظور الأكبر ، وإنمـــا راودت هـــذا الشاب مراودة ، فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [١] .

التفسير الصحيح :

ذكر بعض العلماء أن التفسير الصحيح لقوله تعالى " ولقد همت به وهـــمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه " : أن الكلام تم عند قوله تعالى:" ولقد همـــت بـــه " وأن همها كان بقصد الفاحشة " وهم بها لولا أن رأى برهان ربه " أن في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير:ولولا أن رأى برهان ربه لهم بهـــا ، فقولـــــه تعالى:" وهم بها " جواب لولا مقدم عليها ، ومعروف في العربية : أن لولا حرف امتناع لوجود ، أي امتناع الجواب لوجود الشرط فيكون الهم ممتنعاً لوجود البرهان الذي ركزه الله في فطرته ، والمقدم إما الجـــواب أو دليله على الخلاف في هذا بين النحويين ، والمراد بالبرهان : هـــو حجـــة الله الباهرة الدالة على قبح الزنا ، وهو شيء مركوز في فطر الأنبياء ، ومعرفة ذلك عندهم وصل إلى عين اليقين وهو ما يعبر عنه بالعصمة وهـــي التـــي تحول بين الأنبياء والمرسلين وبين وقوعهم في المعصية .. وهذا هو القول الجزل الذي يوافق ما دل عليه العقل من عصمة الأنبياء ، ويدعو إليه السابق واللاحق ، وأما كون جواب لولا لا يجوز أن يتقدم عليها فهـــذا أمر ليس ذا خطر ، حتى يعدل عن هذا الرأي الصواب ، إلى التفسيرات الأخرى الباطلة .

---

[١] سورة يوسف ، الآية : ٥٢ .

وقـيل : إن الهـم همان ، هم ثابت وهو : إذا كان معه عزم وعقد ورضـا مـثل هم امرأة العزيز ، والعبد مأخوذ به . وهم عارض وهو : الخطـرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف (عليه السلام) ، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم به أو يعمل [١] .

وقيل : همت به شهوة وقصد الفاحشة ، وهم هو يضربها فصرف الله عنه هم الضرب حتى لا يقتص منه بالانصراف مسرعاً نحو الباب .

النموذج الثالث : فيما ذكر في قصة زواج السيدة زينب :

مـا نسب إلى رسول الله (ﷺ) في قصة زواجه بأم المؤمنين زينب بنـت جحـش رضي الله عنها بعض الروايات المكذوبة ، فقد ذكر بعض المفسرين في قصة زواجه (ﷺ) روايات مكذوبة تخدش من عصمته وتنال من شخصه وقد تناقلها بعض ذوي الغفلة من الدعاة بحجة أنها مبثوثة في كتـب التفسير والسير وتلقفها خصوم الإسلام من المستشرقين ليثيروا من خلالهـا الغـبار حول مقام النبوة ، علماً بأن قصة الزواج كانت لمقاصد شرعية .

فقـد ذكروا في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَـى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [٢] .

---

[١] تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير (٤ / ٤٣١) .
[٢] سورة الأحزاب ، الآية : ٣٧ .

فقد روى عن قتادة وابن زيد [١] أن رسول الله (ﷺ) ذهب إلى بيت زيد في غيبته فرأى زينب في زينتها ، وفي رواية : أن الريح كشفت عن ستر بيتها ، فرآها في حسنها ، فوقع حبها في قلبه فرجع وهو يقول : سبحان الله العظيم ، سبحان مقلب القلوب ، فلما حضر زيد أخبرته بكلام رسول الله ، فذهب زيد وقال : بلغني أنك أتيت منزلي ، فهلا دخلت يا رسول الله ، لعل زينب أعجبتك ، فأفارقها ، فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، فنزلت الآية ، وقد ذكر هذا السبب في تفسير الجلالين ، وفسر المفسر الجلال الآية على هذه الرواية ، فيقول : وتخفي في نفسك ما الله مبديه – تظهره من محبتها – وأن لو فارقها زيد تزوجتها ، وذكر مثله الزمخشري ، والنسفي ، وابن جرير ، والثعلبي ، وغيرهم ، إلا أن ابن جرير ذكر بجانب هذا الباطل المدسوس رواية تتفق مع الواقع والحق . وذكر مثل هذه الروايات الباطلة التي ليس لها من شاهد من نقل ولا عقل غفلة شديدة، وإن كان من أبرز سنده تبعته أخف ، وهذه الرواية إنما هي من وضع أعداء الدين ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم متهم بالكذب والتحديث بالغرائب ، ورواية الموضوعات ، ولم يذكر هذا إلا المفسرون والإخباريون المولعون بنقل كل ما وقع تحت أيديهم من غث وسمين ، ولم يوجد شيء من ذلك في كتب الحديث المعتمدة التي عليها المعول عند الاختلافات ، والذي جاء في الصحيح يخالف ذلك ، وليس فيه هذه الرواية المنكرة [٢] .

---

(١) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .
(٢) راجع الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د / محمد بن محمد أبو شهبة ص ٢٠٤

ومـن الروايات المنكرة -أيضاً- ما جاء عن ابن وهب قال ابن زيد : (كـان النبـي (ﷺ) قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته فخرج رسول الله (ﷺ) يوماً يريده وعلى الباب ستر من شعر فرفعت الريح الستر فانكشفت، وهي في حجرتها حاسرة فوقع إعجابها في نفس النبي(ﷺ) فلمـا وقع ذلك كرهت إلى الآخر ، فجاء فقال : يا رسول الله إنني أريد أن أفـارق صاحبتي ، قال : مالك أرابك منها شيئ ؟ قال : لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله ولا رأيت إلا خيراً ، فقال رسول الله (ﷺ) : أمسك عليك زوجك واتق الله ، " وتخفي في نفسك " إن فارقها تزوجتها) [١] .

التفسير الصحيح :

والتفسير الصحيح تتجلى فيه حكمة الله العالية في هذا الزواج حيث كان من العادات المتأصلة عند العرب التبني ، وكانت القبائل العربية تلحق الابـن المتبني بالعصبة ، وتجري عليه حقوقه في الميراث وحرمة زوجته علـى مـن تبناه ، كما كان من العادات أن بنات الأشراف لا يتزوجن من مـوال ، وإن اعتقوا ، وصاروا أحراراً طلقاء ، فلما جاء الإسلام كان من مقاصـده أن يـزيل الفوارق بين الناس التي تقوم على العصبية ، وحمية الجاهلية ، فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب .

كمـا كان من مقاصده -أيضاً- أن يقضي على التبني وعلى حرمة زوجـة الابن المتبني ، وقد شاء الله أن يكون أول عتيق يتزوج بعربية هو زيد بن حارثة ، وأن يكون أول سيد يبطل هذه العادة هو رسول الله (ﷺ) ،

---

[١] تفسير الطبري (٢٢ / ١٣) .

كمـــا كان من عادات العرب أن بنات الأشراف إذا تزوجن من الموالى ثم وقع الطلاق أو الفراق لا يجوز لأحد أن يتزوج بهذه السيدة ، فأراد الله أن يـــبطل هـــذه العادة بأن يكون أول من يتزوج بامرأة تزوجت من عبد هو رسول الله (ﷺ) .

فكل هذا يبطل مزاعم المستشرقين والمبشرين الذين أطلقوا لخيالهم العنان فيصوروا الجمال الذي رآه الرسول (ﷺ) من السيدة زينب حين فتح بـــاب بيـــتها ، ونسي هؤلاء وأولئك أن السيدة زينب هي بنت أميمة بنت عـــبد المطلـــب بنت عمة رسول الله ، وقد ربيت على عينه وشهدها وهي تحبو ، ثم وهي شابة ، وله بحكم صلة القرابة معرفة بها ، فكيف يفتن بها عـــندما رآهـــا في بيت زيد ؟ وقد وهبته نفسها وكرهت غيره ، فلم يخطر ذلـــك بباله ، فكيف يتجدد هوى لم يكن ؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة .

إن حياة رسول الله(ﷺ)من صباه إلى كهولته إلى أن توفي ترد هذه الفـــرية ، فحياته لم تكن حياة حب واستهتار ، ولا عُرف عنه أنه كان زير نساء ، ولا صريع الغواني ، وإنما كانت حياة الشرف والكرامة ما عرفت الدنيا أطهر نبلاً منه ، ولا أعف منه ، ولا لمست يده قط يد امرأة لا تحل لـــه بشهوة ، وكيف يكون على هذا الحال الذي افتروه من خاطبه من يعلم الســـر وأخفى بقولـــه " وإنك لعلى خلق عظيم " ولو كان رسول الله (ﷺ) صـــاحب هوى أو غرام لأشبع رغبته وهو في ميعة الصبا وشرخ الشباب أيام أن كان الغيد الكواعب من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكن

حلـيلات له ، ولكنه قضى شبابه مع سيدة تزيد على الأربعين ، ورضيها زوجـاً له ، حـتى توفاها الله ، ومهما قيل في جمالها ، فهناك غيرها من الأبكار الشابات من يفقنها في الجمال ، وللأبكار ما لهن من جاذبية وروعة. ومن قضى بغير ذلك ، فقد خالف سنة الله في الفطرة واتبع شواذ العادات .

ولـم يكن زواج رسول الله (ﷺ) بزوجاته إلا لحكم ومقاصد سامية ، فـزواجه بعائشـة وحفصـة توكـيد للعلاقة بينه وبين وزيريه ، وزواجه بالسـيدتين سودة وزينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله تكريم لهما ، وللعقـيدة القوية في شخص زوجيهما [١] ، وزواجه بالسيدة أم سلمة جبر لكسرها ، وتعويض لها عن فقد عائلها وعرفان لتضحياتها وتضحيات السيد أبي سلمة زوجها ، وزواجه بالسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان ، حفظ لها من الضـيعة وهـي في بلاد نائية عن بلادها ، فقد تنصر زوجها عبيد الله بن جحـش ومـات على نصرانيته ، وثبتت هي على إيمانها ، وتحملت آلام الوحدة والغربة ، وزواجه بالسيدة زينب بنت جحش لإبطال عادة التبني [٢]

هذه الأمثلة تبين خطورة موقع الداعية ، لأنه يتحدث عن الله وعن رسول الله (ﷺ) ومن ثم يجب عليه أن يكون عارفاً بما يلي :

١ - بـالكلام المكذوب المختلق الذي ينسب إلى رسول الله (ﷺ) ولم يقله الرسول ولم يفعله ولم يقره .

---

[١] فقد هاجرت السيدة سودة مع زوجها إلى الحبشة فمات هناك ، أما السيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله فكانت تحت عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف أحد شهداء بدر ، وقيل كانت زوجة عبد الله بن جحش شهيد أحد .

[٢] د / محمد بن محمد أبو شهبة : الإسرائيليات والموضوعات ، ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

٢ - وأن يكـون عارفـاً بنشأة الأحزاب والفرق ، وظهور البدع والأهواء ، لأن الوضع بدأ من هؤلاء حيث إنهم أخذوا يختلقون الكذب على رسول الله (ﷺ) ليؤيدوا مذاهبهم ويروجوا بدعتهم .

وكان الشيعة هم أول من تجرأوا على الكذب على رسول الله (ﷺ) وكانت أول بيئة نشأ فيها الوضع هي العراق ، فكان الإمام مالك (رضي الله عنه) يسمي العراق " دار الضرب " أي تضرب فيها الأحاديث كما تضرب الدراهم .

وقـال ابن شهاب:يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود إلى العراق ذراعاً وذلـك لـبعد العراق عن الحجاز ولوجود أخلاط من المسلمين من مختلف الأمم وظهور المذاهب المختلفة في العراق من معتزلةومرجئة وغيرهم .

٣ - وأن يكون عارفاً بأسباب الوضع في الحديث والتي ترجع إلى أسباب كثيرة منها ما يلي :

١ - **التعصـب السياسـي** : حيث انقسم المسلمون إلى سنة وشيعة وخوارج ، وأسرفت الشيعة في وضع الأحاديث المكذوبة في فضائل أئمتهم ورؤسـاء أحـزابهم وفي فضائل الإمام علي وآل بيته . يقول ابن تيمية : " وكـذب الرافضـة يضرب به المثل " حيث أسرفوا في وضع الأحاديث بجرأة بالغة [١] .

٢ - **العـداوة للإسـلام** : مـن أسباب الوضع أيضاً عداوة الفرس والروم للدولة الإسلامية ، يقول الدكتور محمد محمود هاشم : " لقد قضت

---

(١) راجـع : تيسـير مصـطلح الحديث ، للدكتور / محمد محمود هاشم ص ١٩١ طبعة النجوم الهاشمية للطباعة والنشر ، الزقازيق .

الدولة الإسلامية على دولتي الفرس والروم اللتين كانتا تتزعمان العالم قبل مجيء الإسلام ، فكان ملوك وأمراء هذه الدول يتنعمون بالخيرات ويعيشون في طبقية من سادة وعبيد ، فجاء الإسلام وسوى بين الجميع ، وهذا الحال لم يرض أولئك المنتفعين فكادوا للدولة الإسلامية وحقدوا عليها ولم يستطيعوا أن يحققوا آمالهم بالقوة وذلك لقوة الدولة الإسلامية وسيطرتها ، فراحوا ينفرون الناس من الإسلام ويصورون التعاليم الإسلامية في أبشع صورة سواءأكان في العقائد أم في العبادات أم في الأفكار ، ومن أمثلة ما وضعه هؤلاء ما رووه:(أن نفراً من اليهود أتوا الرسول (ﷺ) فقالوا من يحمل العرش فقال : تحمله الهوام بقرونها والمجرة التي في السماء من عرقهم ، قالوا نشهد أنك رسول الله (ﷺ)) .

قال أبو القاسم البلخي : " هذا والله تقول،وقد أجمع المسلمون على أن الذين يحملون العرش ملائكة " [١] .

٣ - القصاصون

من أسباب الوضع في الحديث ما كان يذكره القصاصون وهم المرتزقة الذين يدعون العلم ويجمعون الناس حولهم ويقصون عليهم الأكاذيب والأقاويل للحصول على الأموال منهم ..

ومن أطرف ما يروى في كذب هؤلاء القصاصين ما رواه أبو جعفر الطيالسي قال : " صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين بمسجد الرصافة فقام بين أيديهم قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا :

---

[١] المصدر السابق ص ١٩٣ .

حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله(ﷺ): " من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان وأخذ في قصه نحو من عشرين ورقة فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين وجعل يحيى ينظر إلى أحمد ، فقال له : حدثته بهذا ؟ فيقول : والله ما سمعت هذا إلا الساعة ، فلما فرغ من قصصه وأخذ العطيات ثم قعد ينتظر بقيتها قال له يحيى بن معين بيده : تعال فجاء متوهماً لنوال فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فقال : أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله(ﷺ)، فقال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ما تحققت هذا إلا الساعة كأن ليس فيها يحيى بن معين وأحمد ابن حنبل غيركما . وقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين ، فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم فقام كالمستهزئ بهما [1] .

٤ – الجهل بالدين بوضع أحاديث في الترغيب والترهيب :

قام بعض الجاهلين بأمور الدين بوضع أحاديث في الترغيب والترهيب عندما وجدوا بعض الناس قد غرتهم الدنيا وتكالبوا عليها ونسوا آخرتهم فوضعوا لهم بعض الأحاديث التي تخوفهم من عذاب الله وترغبهم في الآخرة ، وكان هؤلاء الوضاعون إذا ذكروا بحديث رسول الله (ﷺ)" من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " قالوا نحن ما كذبنا عليه – أي

---

[1] انظر : الباعث الحثيث للإمام ابن كثير ، ص ٨٥ .

على الرسول – وإنما كذبنا لــه ، وهذا من تمام جهلهم الفاضح وفجورهم وافترائهم ، فإنه (ﷺ) لا يحتاج في كمال شريعته إلى غيره [١] .

وقــد قــال الإمــام الغزالــي : " وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشدد في المعاصي وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض [٢] .

وقــد كان أكثر الذين يقومون بهذا النوع من الكذب على رسول الله من المشهود لهم بالزهد والصلاح ، قال يحيى القطان : ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير ، كما أن البعض منهم رأى أن انشغال الــناس بالفقــه قد يدفعهم إلى الإعراض عن القرآن فوضعوا أحاديث في فضــائل ســور القرآن [٣] ، ولهذا قام علماء الحديث بجهود مباركة في الحفــاظ على سنة نبيهم فقاوموا الوضاعين وطهروا ساحة السنة المشرفة من الدخيل عليها ووضعوا القواعد التي تحافظ على السنة وتصونها [٤].

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٩ .
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣ / ١٦٨) .
(٣) تدريب الراوي ، ص ١٨٤ .
(٤) تيسير مصطلح الحديث ، د / محمد محمود ، ص ١٩٨ .

المبحث الثاني

المنهج الصحيح في فقه النص

ضوابط فقه النص :

ذكرنا سابقاً أن المصدرين المعصومين : القرآن والسنة الصحيحة أساسان لمنهج الدعوة إلى الله – تعالى- ولهذا يجب على من نصّب نفسه لأن يدعـو إلى الله-تعالى-أن يحسن الفهم عن الله ورسوله (ﷺ) . وحسن الفهـم والفقـه يحـتاج إلى ضوابط ، لضبط العملية الدعوية ، وأهم هذه الضوابط كما بيّنها العلماء ما يلي :

١ – الإخلاص والتحرر من الهوى :

علـى الداعية إلى الله تعالى أن يتخلق بخلق الإخلاص في دعوته إلـى الله-تعالى-وأن يتحرر من الهوى الذي يقذف به في مهاوي الضلال ، فـالإخلاص والـتحرر مـن الهوى يدفعانه إلى حسن الفهم والفقه للنص المعصـوم ، ومـن ثم حذر القرآن الكريم من اتباع الهوى سواء أكان هو النفس أم هوى الغير ، قال تعالى لداود(عليه السلام): ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [١] .

ويقول الله – سبحانه وتعالى- لرسوله محمد (ﷺ) في شأن المعرضين عن دعوته : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [٢] .

---

[١] سورة ص الآية : ٢٦ .

[٢] سورة القصص ، الآية : ٥٠ .

ويؤكد القرآن أن من اتبع هواه ضل وتاه ، وأمسى إنساناً سائباً لا ينضبط بضابط ولا يعتصم برابط ، لأنه يركض وراء الهوى ، والأهواء لا تتناهى ، ومن هنا قال الله لرسوله: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (١) .

وهذا الهوى المتحكم هو الذي يجعل الإنسان يستمع إلى الحق فلا يعي منه شيئاً ، لأنه حاضر بجسمه لا بقلبه ، ويستمع بأذنه لا بعقله ، ولهذا يخرج من الدرس الذي سمعه أو الكتاب الذي قرأه ، ولم يستفد شيئاً كالذين وصفهم القرآن : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٢) .

وكثير من هؤلاء التائهين يغالطون أنفسهم فيزعمون أنهم يتبعون عقولهم ، والواقع أنهم لم يتبعوا إلا أهواءهم ، فقد جعلوا العقل تابعاً للهوى واتباع الهوى لون من عبادة الذات ، وهي لون من الشرك ، فلا فرق بين أن يعبد المرء شخصه وأن يعبد شخصاً آخر .

وقد جاء عن ابن عباس : شر إله عبد في الأرض الهوى ، ثم تلا الآية الكريمة:﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٢٨ .

(٢) سورة محمد ، الآية : ١٦ .

(٣) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

وكمـــا حـــذر القرآن من اتباع هوى النفس ، حذر من اتباع أهواء الآخرين ، يقول تعالى لرسوله الكريم (ﷺ) : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

هــذا في القرآن المكي ، وفي القرآن المدني يقول : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

إن صـــاحب الهوى لا يمكن أن يكون موضوعياً ولا محايداً ، إزاء مـــا يقـــرؤه وما يسمعه ، وما يشاهده لأنه يريد إخضاع كل شيء لهواه، فالنصـــوص عـــنده تابعـــة لا متبوعة ، والأدلة لديه خادمة لا مخدومة ، والنتائج عنده سابقة على المقدمات ، والمدلول متقدم على الدليل .
فهـــو لا يقرأ ولا يدرس ليصل إلى الحقيقة أياً كانت ، بل يقرأ ويبحث عما يعضـــد فكـــرته ، وينصـــر رأيه ومعتقده ، فإن وجد ما يسنده – ولو من بعـــيد – هلل وكبر ، وإن وجد ما يعارضه غض الطرف عنه واجتهد في إهالـــة التراب عليه لو استطاع ، وإلا صوب إليه سهام التأويل المتكلف أو شهر عليه سيف التكذيب والإنكار (٣) .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ١٨ – ١٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٤٩ .

(٣) د / يوســف القرضاوي : المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ، ص ١٥٩ – ١٦٠ .

إن هـــذا الضابط من أهم الضوابط في فهم النص واستخلاص فقه النص وذلك لأنه لا يبحث إلا عن الحق الذي أراده الله لعباده ومن ثم كان مـــن أدعـــية رســـول الله(ﷺ)ما روته أم المؤمنين عائشة : أنه كان يفتتح صـــلاته إذا قـــام من الليل بقوله : اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطـــر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كـــانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (١) .

٢ – التحرر من التقليد والعصبية :

علـــى الداعـــية إلى الله-تعالى-لكي يصل إلى فقه النص وفهمه أن يـــتحرر من التقليد ، لأن المقيد بالتقليد لمذهب معين أو لفرقة أو اتجاه لا يســـتطيع أن يخـــرج عـــن قـــيده شبراً ولا فتراً (٢)، وسوف يتعامل مع النصوص على أنها أدوات لتأييد المذهب الذي يتبعه أو الفرقة التي ينتمي إليها ، والداعية إلى الله-تعالى-هو لكل المدعوين للمسلمين ولغير المسلمين ، ومن العيب أن يصنف الداعية بأنه مثلاً ينتمي إلى الجمعية الشرعية ، أو إلـــى الفـــرق الصـــوفية ، أو إلى أهل السلف ، أو إلى غير هؤلاء لأنه لا ينتمي إلا إلى الكتاب والسنة ، إلى الإسلام بربانيته ، وواقعيته ، ووسطيته ، وشموله وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين رقم ٧٧ .
(٢) الفتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحهما ج أفتار. المعجم الوجيز ٤٦١
(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٣ .

إن المقلد ليس حراً في فكره إذا فكر ولا مستقلاً في بحثه إذا بحث يقـول الإمام أبو الفرج ابن الجوزي : " واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظـم فـي قلوبهـم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال ، وهذا عيـن الضلال ، لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى قائله كما قال علـيّ (ﷺ) للحـارث بن حوط ، وقد قال لـه : أتظن أنّا نظن أن طلحة والزبـير كانا على باطل ؟ فقال لـه : يا حارث ، إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال أعرف الحق تعرف أهله " [١] .

٣ – الابتعاد عن تجزئ النصوص :

مـن الضـوابط التي يجب أن يراعيها الداعية إلى الله وصولاً إلى الفهم الصحيح والفقه الرشيد للنص أن يبتعد عن تجزئة النصوص وتقطيعها إربـاً ، بل عليه أن يربط النصوص بعضها ببعض ، وأن ينظر إلى أحكام الإسـلام وتعالـيمه كلها نظرة شاملة مستوعبة حتى لا يفصل العقيدة عن الشـريعة ، ولا الشريعة عن الأخلاق ، ولا الأخلاق عن العواطف ، ولا العواطـف عـن العمل ، بل ينظر إلى الإسلام بكل مكوناته كأنه وحدة لا تقبل التجزئة ولا تحتمل الانقسام .

يقـول الدكتور يوسف القرضاوي : " وسبيل هذا ألا نتشبث بنص واحـد ، مغفلين النظر إلى ما سواه ، مما يكمل معناه ، أو يقيد مطلقه أو يخصـص عمومـه ، أو يفصّل إجماله ، أو يُفسر إيهامه ، أو يلقي شعاعاً على غايته ومقصوده " [٢] .

---

[١] راجع : تلبيس إبليس لابن الجوزي ، ص ٨١ – ٨٢ .

[٢] المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ، ص ١٧٥ .

وذلك لأن التجزئ والتقطيع مسلك الغلاة الهالكين من الفرق المبتدعة كالقدرية والمرجئة والخوارج والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع ، هؤلاء جميعاً وقعوا فيما وقعوا فيه من الزيغ والهلاك بسبب تجزئة النصوص ، فالخوارج تمسكوا بنص: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (١) وأعرضوا ونأوا بجانبهم عن النصوص القرآنية الأخرى التي خصصت هذا النص .

ودعاة الجبر تمسكوا بمثل قوله: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٣) .

وقولـــه سبحانه: ﴿ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) وقوله(ﷻ): ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٥) .

ويبـــنون مذهبهم على الجبر وينفون الفعل عن العبد ويضيفونه إلى الـــرب تعـــالى (٦) ويغفلون الآيات الأخرى التي تفسر هذه الآيات وتحدد إطارها مثل قولـــه تعالى: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٧) وقوله: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (٨) .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة الإنسان ، الآية : ٣٠ .

(٣) سور الأنعام ، الآية : ١٠٢ .

(٤) سورة الصافات ، الآية : ٩٦ .

(٥) سورة فاطر ، الآية : ٨ .

(٦) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ، ص ٨٥ .

(٧) سورة الكهف ، الآية : ٢٩ .

(٨) سورة المدثر ، الآية : ٣٧ .

وقولـــه تعالى: ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾(١) وقوله ﷻ: ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (٢) .

وقولـــه تعـــالى: ﴿ مَـــنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِـــيدِ ﴾ (٣) ، وقولـــه سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـــونَ ﴾ (٤) ، وقولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُســـهُمْ يَظْلِمُـــونَ ﴾ (٥) وقوله: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّـــا الْفَاسِـــقِينَ ﴾ (٦) وقولـــه: ﴿ قُـــلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (٧) .

والمعـــتزلة نظروا إلى هذه الآيات وأغفلوا الآيات التي استدل بها الجبريون .

والحـــق أن مجمـــوع الآيات يفيد أن الإنسان مكلف ومختار ، ذو مشيئة وقدرة ، وهو الذي يقرر مصير نفسه ، بما ملكه الله إياه من إمكانات ووسائل ، إن اهتدى وعمل صالحاً ، أو ضل وأساء والله لا يظلمه شيئاً . ولكن مشيئة الإنسان ضمن مشيئة الله تعالى ، فهو يشاء لأن الله تعالى شاء

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٦٢ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٥ .
(٣) سورة فصلت ، الآية : ٤٦ .
(٤) سورة الزخرف ، الآية : ٧٢ .
(٥) سورة يونس ، الآية : ٤٤ .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ .
(٧) سورة الرعد ، الآية : ٢٧ .

له أن يشاء ، أي أنه يشاء بمشيئة الله ، ويعمل بقدرة الله [١] .

وهكـــذا يجـــب على الداعية أن ينظر إلى القضايا الدعوية بنظرة شـــمولية حـــتى يصل إلى الفهم الصحيح في قضيته التي يدعو إليها وألا يتشبث بنص واحد ويغفل النظر إلى ما سواه .

٤ – النظر إلى الشريعة بعين الكمال :

مـــن ضـــوابط فهـــم النص أن يؤمن الداعية بكمال الشريعة وعدم تناقضـــها وأن كمالهـــا مستمد من كمال من أنزلها وقد قال تعالى: **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾** .

إن شريعة الله كاملة في كل ما أمرت به أو نهت عنه ، أو أذنت به أو دعـــت إليه ، والذين تطاولوا على الشريعة من دعاة التنصير وأقطاب الاستشـــراق ، وممن سار في ركابهم من العلمانيين ، عابوا على الشريعة الطـــلاق ودفعتهم ظروف الحياة إلى إباحته والإسراف والتوسع فيه ، كما عابوا على الشريعة تعدد الزوجات ، وها هم يعددون ، ولكن بغير إذن من الله ، يرفضـــونها حلـــيلة ويعاشرونها خليلة ، عابوا على الشريعة تشريع الحجاب وفتحوا الباب على مصراعيه ، بل فتحوا أبواب الشذوذ وباركتهم بعـــض الكـــنائس ، وها هي مجتمعاتهم تشكوا التحلل الأخلاقي ، والتفكك الأســـري ، والقلـــق النفسي ، ومن ثم يجب على الدعاة إلى الله أن يؤمنوا إيمانـــاً كـــاملاً بـــأن النصـــوص تتكامل ولا تتناقض ، وأنها تتعاضد ولا تتعارض .

---

[١] المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ، ص ١٧٧ .

وعلـــى الداعية أن يفهم القواعد الصحيحة المجمع عليها في الجمع بين المختلفات والتي ذكرها ابن الوزير وهي :

تقديم النص على الظاهر المحتمل .

والخاص على العام .

والمبين على المجمل .

والمعلوم على المظنون .

والمتواتر على الآحاد .

والناسخ على المنسوخ .

والمشهور على الغريب .

والصحيح على الضعيف .

والمتفق على صحته على المختلف على صحته [١] .

بمـــثل هذه القواعد يُرفع التعارض أو التناقض ، وهذا يتطلب من الداعـــية أن يكون ملماً بأصول الإسلام ومقاصده حتى لا يقع فيما وقع فيه كثير من العلمانيين والمنصرين والمستشرقين .

يقـــول الدكـــتور يوسف القرضاوي عن هؤلاء : " فقد يقرأ أحدهم حديثاً مفرداً ، لعله ورد في مناسبة خاصة ، وفي قضية بعينها ، قد تكون لهـــا ظـــروفها وملابساتها التي لا تمتد إلى غيرها ، فيتشبث بهذا الحديث ويعض عليه بالنواجذ ، ولا يربطه بغيره من الأحاديث في موضوعه ، بل

---

(١) راجـــع : إيثار الحق على الخلق للإمام المجدد : محمد بن إبراهيم المرتضى المعروف بابن الوزير ، ص ١٥٤ – ١٥٥ .

لا يربطه بما جاء في القرآن الكريم حول هذا الأمر .

ومثل هذا لا يصدر إلا لأحد أمرين أو كليهما :

الأول : الجهل وفقدان الفقه السليم ، وشر من الجهل نصف العلم ، ومـــنه العلم الذي يقف عند السطح ولا ينفذ إلى الأعماق ، الذي يقف عند الظواهر ولا يدرك المقاصد .

والثانـــي : اتباع الهوى ، واتباع الهوى يعمي ويصم **﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾** [١] .

٥ – التمسك بالنصوص القطعية :

مـــن الضـــوابط المهمـــة التي يجب على الدعاة إلى الله تعالى أن يتمســـكوا بها لحسن الفهم عن الله ورسوله ما يعرف في علم أصول الفقه بالنصوص القطعية والمراد من ذلك قطعي الثبوت وقطعية الدلالة وقطعية الثبوت تتحقق في آيات القرآن الكريم كله ، والمتواتر من الأحاديث النبوية ومـــا يلحق بالمتواتر من أحاديث الصحيحين أو ما يرفعها من مرتبة الظن إلى مرتبة القطع واليقين .

فالخمـــر والميسر والربا والزنا والحرابة وغيرها من الأمور التي ثبتـــت بالنصـــوص القطعـــية فلا يجوز لأحد أن يشكك فيها أو أن يماري بالباطل لإلغائها أو لتعطيلها .

٦ – التمسك بما أجمعت عليه الأمة :

من الأمور المهمة لضبط فهم الدعاة لنصوص القرآن والسنة ، أن

---

[١] سورة القصص الآية : ٥٠ .

يتمســكوا بما أجمعت عليه الأمة ، وليس مقصودنا من الإجماع " الإجماع الأصــولي فحسب الذي قد ينازع فيه منازعون في إمكانه ، أو في وقوعه إذا أمكن ، أو في العلم به إذا وقع ، أو في حجيته إذا علم إنما المراد: ما يمثل اتجاه الأمة العقلي والنفسي والاعتقادي والسلوكي الذي توارثته خلال القرون وتلقاه الخلف عن السلف ، والأبناء عن الآباء .

ومن دلائل التمسك بما أجمعت عليه الأمة ، التمسك بهدي الصحابة وتابعــيهم بإحســان ، ومن ثم فلا يجوز ولا يسوغ لأحد – كائناً من كان مــبلغه من العلم – في القرن الخامس عشر الهجري أو السادس عشر أو حــتى العشــرين إلــى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، أن يطلع علينا بــرأي يشــذ عن الأمة كلها ويخطئها فيما أجمعت عليه خلال أربعة عشر قــرناً ، ويضــلل الراســخين والربانيين من علمائها وفقهائها ، ابتداء من الصــحابة ومــن بعدهم ، ويتهم خير أمة أخرجت للناس بأنها ضلت عن الحــق طــوال تاريخها ، حتى ظهر هو ، فأتى بما لم يأت به الأوائل ، واكتشــف ما غاب عن الخلفاء الراشدين وعن الأئمة المجتهدين [١] . كما فعــل الأستاذ جمال البنا [٢] والدكتور محمد شحرور [٣] والدكتور نصر أبو زيد ، وغيرهم .

---

[١] المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .

[٢] كاتب مصري علماني له عدة مؤلفات .

[٣] ســوري دكتور مهندس عاش في روسيا ما يقرب من عشرين عاما ، مركسي لم تشم أنفه رائحة علوم الإسلام ، له عدة كتب يهاجم فيها الإسلام ويدعي التجديد في كتبه .

فقـد اتهموا الأمة كلها في سلامة فكرها ووجدانها ، وزعموا أنها بصحابتها ، وأئمتها وأساطينها لم تفهم كتاب ربها ، ولا سنة نبيها ، وأنها أخطـأت الصـواب ، وتاهت عن الحق خلال تلك القرون ، والعجيب أن هـؤلاء لا بضاعة لهم ، ولم ترسخ لهم قدم في علم الكتاب ولا السنة ولا الأصول ولم يتلقوا العلم من أهله ، إنما جمعوا قشوراً من قراءات هامشية ومطالعات سطحية .

ومع هذا ينادون بإعادة قراءة القرآن أو قراءة السنة من جديد قراءة معاصرة ، غير مقيدة بأصول التفسير ، ولا بأصول الحديث ، ولا بأصول الفقـه ، ولا بمشهور اللغة ، لتكون المحصلة : الإتيان بشرع جديد ، غير شرع رسول الله (ﷺ) الذي تلقته الأمة بالتواتر اليقيني [١] .

إن الشذوذ عن " سبيل المؤمنين " المتمثل في إجماع الأمة واتهامها بأنهـا اجتمعت على ضلالة أمر مرفوض ومخالف لنص القرآن الكريم ، قـال تعـالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [٢] .

يقـول ابن كثير في تفسير الآية : " من سلك غير طريق الشريعة التـي جاء بها الرسول (ﷺ) فصار في شق والشرع في شق ، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له وقوله: (ويتبع غير سبيل المؤمنين) هذا ملازم للصفة الأولى ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع

---

(١) راجع : المرجعية العليا في الإسلام ، ص١ [illegible]

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٥ .

وقـد تكـون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً فإنـه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك ، وقد ذكرنا منها طرفاً صـالحاً في كتاب أحاديث الأصول ، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها والذي عليه عول الشافعي-رحمه الله-في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحـرم مخالفـته هذه الآية الكريمة ، بعد التروي والفكر الطويل وهو من أحسـن الاسـتنباطات وأقواها ، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالـة منها على ذلك ، ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله:﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، أي إذا سلك هذا الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ، ونزينها له استدراجاً له كما قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١] وقال ﷻ : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وقوله ﷻ:﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

وجعل النار مصيره في الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طـريق إلا إلـى الـنار يوم القيامة كما قال تعالى:﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ الآية ، وقال تعالى:﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾" [١] .

إن التمسـك بمـا ثبت عن الصحابة أمر أقره الشرع وحث عليه ، ففي حديث العرباض بن سارية يقول : وعظنا رسول الله (ﷺ) موعظـة

---

(١) سورة القلم : ٤٤ .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٥٥٤ - ٥٥٥) .

وجلـت منها القلوب ، وزرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظـة مـودع ! فأوصنا . قال : " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمـر علـيكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسـنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة " [١] .

---

[١] رواه الترمذي في كتاب العلم عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٠٠) وقال : حديث حسن صحيح .

أهمية فقه النص :

المقصـــود من فقه النص سواءأكان من القرآن الكريم أم من السنة النـــبوية فهم النص بكل أبعاده مع الأخذ بضوابط فهم النص كما تحدثنا عـــنها ســـابقاً كمـــا أشار إليها علماء الأمة ، وذلك لأن المفاهيم التي يراد إشاعتها في عالم المسلمين ، والسماح باستقرار دلالاتها بالذهنية الإسلامية وتأنيســـها أو الأنـــس بها يعتبر من أخطر الأسلحة التي توجه إلى الأمة ، ومن أول مراحل الوهم الذي يدفع إلى الاحتضار والموت .

مفاهيم خاطئة عوقت مسيرة الأمة الإسلامية :

وقـــد أشـــيع فـــي عـــالم المسلمين مفاهيم مغلوطة كانت سبباً في الإصـــابات والانكســـار والتراجع ، حتى أصبحنا في مؤخرة الأمم كلها ، ومن ثم فالأمر جد خطير يتحمل تبعته الدعاة إلى الله ـتعالى ـ، ولذلك يجب علـــيهم أن يحســـنوا فهم النصوص ، وأن يصححوا المفاهيم الخاطئة التي عوقت مسيرة الأمة ، والتي منها :

أولاً : من يقفون عند ظواهر النصوص :

وقعت أخطاء كثيرة كانت سبباً في ارتكاس الأمة بسبب فهم ظواهر النصوص ولم يجدوا دعاة فاقهين للأخذ بأيديهم من هؤلاء :

أ - قوم وقعوا في فتاوي مضحكة مثل من كان يصلي صلاة الوتر بعد الاســـتنجاء – أي الخـــروج من دورة المياه – من غير إحداث وضوء ، واســـتدل على ذلك بقوله ـعليه الصلاة والسلام ـ: " من استجمر فليوتر " ، ففهـــم من قوله " فليوتر" صلاة الوتر ، مع أن المراد من ذلك إيتار الجمار عند الاستنجاء .

ب - وظل أحدهم لا يحلق رأسه قبل صلاة الجمعة أربعين سنة ، وذلك لأنـــه ســـمع بحديث رسول الله (ﷺ) أنه : نهى عن الحلق قبل الصلاة يوم الجمعة ، مع أن المراد أنه (ﷺ) نهى عن عقد الحلقات المؤدية إلى مضايقة الناس يوم الجمعة في المسجد ، حيث إن مسجد رسول الله (ﷺ) كان يجلس فيه الصحابة متحلقين أي في دوائر ، وليس النهي عن حلق شعر الرأس ، ولو أنه فهم الفرق بين كلمة حِلق وحَلق ما وقع فيما وقع فيه .

ج - وفهـــم آخر من حديث " نهى رسول الله (ﷺ) أن يسقي الرجل ماءه زرع غـــيره ، المنع من السقي بساتين الجيران !! مع أن المراد النهي عن وطئ الحبالى من السبايا " [١] .

ثانياً : فهم بعض النصوص دون بقية النصوص :

إن اســـتيعاب المنهج النبوي كله يحقق للأمة الاستخلاف والعمران والبـــناء الحضـــاري والتمكين في الأرض ، والتعامل مع الواقع وتغييره والارتقـــاء بـــه ، كمـــا أن غياب الرؤية الشاملة للمنهج النبوي وعدم فقه مقاصـــد الشريعة ، والاختلال في شمولية الرؤية يدفع المجتمع إلى الركود والكســـل والخمـــول والتخلف واستجداء الآخر ، وتصيب الأمة بإصابات فكرية تقذف بها إلى الضياع في كل مناحي الحياة ويسودها التقليد الجماعي والمحاكاة .

وهذه بعض الأمثلة الدالة على عدم فهم النصوص فهما متكاملاً :

---

[١] انظـــر : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، د / مصطفى السباعي ، ص ٤٠٦ ، الطبعة الثانية ١٩٧٨م .

أشـــاع الدعاة أحاديث كثيرة تمجد الفقر وتقدسه حتى وجدنا عالماً لا يشـــق له غـــبار كالإمام الغزالي يكتب عن الفقر والزهد وفضله وعلى دربـــه سار الدعاة يدعون الناس من فوق المنابر إلى حب الفقر والزهد .
يقول الإمام الغزالي : اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً ، وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً علـــيه لـــم يكن المحتاج فقيراً ، وإذا فهمت هذا لا تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود ... " [١] .

وبعد أن يجول بفكره في بيان حقيقة الفقر يقول : " لسنا نقصد بيان الفقـــر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص " ثم أخذ يذكر أحاديث التحذير من فتنة الغنى وحب المال مثل ما رواه الشيخان عن أسامة بن زيد أن النبـــي (ﷺ) قـــال : " قمـــت علـــى باب الجنة ، فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون " [٢] .
وأصحاب الجَد – بفتح الجيم – هم أصحاب الحظ من المال والغنى ومتاع الدنيا .
وما صح أنه (ﷺ) " كان يتعوذ بالله من شر فتنة الغنى " [٣] .
وقولـــه (ﷺ) فيما رواه الشيخان عن أبي ذر (رضي الله عنه): " هم الأخسرون ورب الكعبة ، هم الأخسرون ورب الكعبة " ! ... فقلت : من هم بأبي أنت وأمي

---

[١] انظر : إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (٤ / ١٨٦) .
[٢] متفق عليه ، وانظر اللؤلؤ والمرجان برقم : ١٧٤٣ .
[٣] مـــتفق علـــيه ، رواه البخاري في كتاب الدعوات . ومسلم في كتاب الذكر والدعاء ، واللؤلؤ والمرجان برقم ١٧٣١ .

يا رسول الله ؟ قال : " الأكثرون أموالاً ، إلا من قال هكذا وهكذا " (١) . يعنـــي إلا من أنفقه أمامه يميناً وشمالاً على مستحقيه ، ولم يبخل بمال الله على عيال الله .

وقولـــــه -عليه الصلاة والسلام -: " ما ذئبان ضاريان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف ، لدينه " (٢) .

وقوله (ﷺ) لبلال " الق الله فقيراً تلقه غنياً " (٣) .

وقوله (ﷺ) : " إن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال " (٤) .

وقولـــه (ﷺ) : " خـــير هذه الأمة فقراؤها ، وأسرعها تضجعاً في الجنة ضعفاؤها " (٥) .

وقولـــه (ﷺ) : " إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر والجهاد " (٦) .

بمـــثل هذه الأحاديث الأخيرة ، وهي أحاديث لا أصل لها أصيبت الأمـــة في مقتل ، والأحاديث التي قبلها وهي أحاديث صحيحة يجب على الدعـــاة عـــند ذكرها أن يذكروا الأحاديث الصحيحة التي جاءت في مدح المال والغنى ، والاستعاذة من الفقر .

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان ، حديث رقم : ٥٧٥ .

(٢) رواه أحمد والترمذي عن كعب بن مالك كما في صحيح الجامع الصغير برقم : ٥٦٢ .

(٣) رواه الطبراني من حديث أبي سعيد وهو ضعيف .

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب فضل الفقراء (٤١١١) وهو ضعيف .

(٥) قال مخرج أحاديث إحياء علوم الدين : لم أجد له أصلاً .

(٦) ذكره الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين (٤ / ١٩٠) وهو حديث لا أصل له .

مثل قوله -عليه الصلاة والسلام -في دعائه لربه : " اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى " (١) .

وقوله لسعد بن أبي وقاص : " إن الله يحب العبد الغني التقي الخفي " (٢)

وقوله له : " إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " (٣) .

وقوله لعمرو بن العاص : " نعم المال الصالح للمرء الصالح " (٤)

ودعائه لخادمه أنس – في جملة ما دعا له – أن يكثر الله ماله (٥) .

فهذه لا تنافي الأحاديث التي ذمت المال لأنها حذرت من شر فتنته وتتمثل في أن يجمع من غير حلة ، أو ينفق من غير محله ، أو يشغل مالكه عن ذكر ربه ، أو يطغيه على عباده .

ولهذا جاء في الحديث الذي استعاذ فيه النبي(ﷺ) من شر فتنة الغنى الاستعاذة من شر فتنة الفقر ، ولفظ الحديث كما روته عائشة : كان النبي -عليه الصلاة والسلام-يقول : اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر ، وعذاب القبر ، وشر فتنة الغنى ، وشر فتنة الفقر " (٦) .

---

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود كما في الصحيح الجامع الصغير برقم ١٢٧٥ .

(٢) رواه أحمد ومسلم عن سعد كما في صحيح الجامع الصغير برقم ١٨٨٢ .

(٣) متفق عليه عن سعد كما في اللؤلؤ والمرجان ، حديث رقم : ١٠٥٣ .

(٤) رواه أحمد في مسنده (٤ / ٢٠٢) .

(٥) رواه البخاري ك الدعوات باب قول الله " وصل عليهم " (٥٨٥٩) .

(٦) رواه البخاري في كتاب الدعوات ومسلم في كتاب الذكر وهو في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان برقم : ١٧٣١ .

وشرهما أن يكون الغنى مطغياً والفقر منسياً .

وكذلــك الحديــث الذي يحذر من حب المال ، يقصد به أن يصبح المرء عبداً للمال يسعى وراء كسبه بالحق أو بالباطل ، ولا يبالي جمعه أو نماه من حلال أو حرام ، فيغدو غاية له ، وهو في الأصل وسيلة في يديه ملك عليه مشاعره ، ففقد توازنه ، وهذا ما عابه القرآن على أهل الجاهلية بقولــه ﴿ وَتَــأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [١] . هو ما صــوره الحديث الصحيح : " تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم " [٢] وهذه العبودية للمال هي المذمومة .

أما الحب الفطري للمال ، فهذا لا يملك الإنسان دفعه ، وهو متصل بغريــزة التملك في الإنسان ، كما قال تعالى في وصف الإنسان : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [٣] والخير هنا هو المال .

الحــب المذموم هو : الحب الجم ، كما وصفه القرآن ، وهو الذي يتحول إلى شراهة ونهم ، بحيث لا يقنع بقليل ولا يشبع من كثير ، ولا يكتفي بما عنده ، فيمد عينه إلى غيره ، ولا يقف عند الحلال ، فيمديده إلى الحرام ، وهو الذي يجعل الناس يؤثرون الدنيا على الآخرة ، ويتنافسون على المتاع الأدنـــى مـــن المـــال والجـــاه والمنصب ، فتهلكهم الدنيا كما أهلكت الأمم السالفة .

---

[١] سورة الفجر : ١٩ – ٢٠ .

[٢] رواه الــبخاري عن أبي هريرة في كتاب الجهاد والسير باب الحراسة في الغزوات في سبيل الله (٢٦٧٣).

[٣] سورة العاديات : ٨ .

وهو ما حذر منه الرسول الكريم (ﷺ) أصحابه حينما قال : " والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها ، كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم " [١] .

والـــذي نخلـــص إلـــيه أن الإسلام جعل الغنى نعمة يمتن الله بها ويطالـــب بشكرها ويجعل الفقر مشكلة بل مصيبة يستعاذ بالله منها ويضع مخـــتلف الوســـائل لعلاجهـــا مثل : حض الإسلام على العمل لأنه السلاح الأول لمحاربـــة الفقر ، وهو السبب الأول في جلب الثروة ، وهو العنصر الأول في عمارة الأرض التي استخلف الله فيها الإنسان [٢] .

ومـــثل فـــرض الـــزكاة الـــذي يسد عجز المحتاجين ويحيي قلوب الأغنياء ويجعلهم يشعرون بعوز الفقراء ، وهو ليس إغراء بالبطالة ، وإنما على العكس من ذلك يدفع الفقراء إلى أن ينافسوا الأغنياء في العمل .

ومـــن هذا المنطلق جاء تذكيره (ﷺ) بنبي الله داود فقال : " ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده " [٣] .

وقـــد ذكـــرنا – سابقاً – أن الخوارج احتجوا لمذهبهم بقوله تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[٤] ناسين قوله (ﷻ): ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا

---

[١] مـــتفق عليه من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ، كما في اللؤلؤ والمرجان برقم : ١٨٦٦ .

[٢] انظر : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام للدكتور القرضاوي ، ص ٣٥ .

[٣] رواه البخاري والمنذري في الترغيب والترهيب ج٢ كتاب البيوع .

[٤] سورة يوسف الآية : ٤٠ .

مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (١) وقوله:﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (٢) .

والخرافيون الذين يطوفون بأضرحة الموتى ، يسألونهم قضاء الحاجات ، وكشف الكربات ، وشفاء المرضى ، استدلوا بقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (٣) والآية – أو الجملة – التي وردت في القرآن بهذا اللفظ ، إنما وردت في نعيم الآخرة للمتقين ، فلهم عند ربهم – أي في الجنة – ما يشاؤون أي ما يطلبون وما تشتهي أنفسهم ، فما أبعد معناها عما يدعون .

فلا عجب أن نرى العلمانيين في عصرنا يحتجون لنفي صفة الحكم عـن الرسول (ﷺ) بمثل قوله تعالى:﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (٤) ..

فمـن الـذي أسـس دولة الإسلام في المدينة ؟ وأقامها على أمتن الدعائم من العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع والجهاد ؟

وبعضـهم استشهد بمثل قوله تعالى:﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة النساء الآية : ٣٥.

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٩٥ .

(٣) سورة الزمر الآية : ٣٤ .

(٤) سورة الغاشية الآية : ٢١ – ٢٢ .

(٥) سورة النساء ، الآية : ٧٧ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

وبما ورد في الحديث : " إن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة " فــإذا كانــت هــذه قيمتها ، فكيف يأتي الدين ليشرع لها ويعني بأمرها ؟! كأن الله لم ينزل أطول آية في كتابه لتنظم شأناً من شؤون هذه الدنيا .

ومــنهم من استدل بحديث : " أنتم أعلم بأمر دنياكم " (١) ليوهم به أن أمــور الحياة كلها – ومنها التشريع والتوجيه والثقافة والإعلام والتقاليد وغيرها – متروكة لنا ، ولا علاقة للدين بها ، ولا دخل له فيها ! (٢)

كــلا فــإن الله أرسل رسله ليضعوا للناس قواعد العدل ، وموازين القسط وضوابط الحقوق والواجبات في دنياهم ، ومن هنا جاءت نصوص الكــتاب والســنة تــنظم شؤون المعاملات من بيع وشراء وشركة ورهن وإجــارة وقــرض ، وغيرها (٣) بل إن أطول آية في كتاب الله نزلت في تنظيم كتابة الديون وهي قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ... ﴾ (٤) .

ولذلك فاستشهاد العلمانيين يدل على جهلهم الفاضح ، فالحديث الذي يستشهدون به جاء في ثلاثة روايات وليس في رواية واحدة ، والذي ينظر إلى هذه الروايات يتضح له ما يلي :

١ – أن الرواية الأولى عن والد موسى بن طلحة ، والثانية عن

---

(١) رواه مسلم حديث رقم : ٢٦٦٣ .

(٢) راجع : المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٣) راجع : المدخل لدراسة السنة النبوية ، د / يوسف القرضاوي ، ص ١٥٢ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

رافع بن خديج ، والثالثة عن أنس بن مالك [١] .

٢ – أن الــرواية الأولـــى جاءت بلفظ مررت مع رسول الله (ﷺ) بقــوم علـــى رؤوس النخل ، والرواية الثانية قال رافع بن خديج قدم نبي الله (ﷺ) مـــن المديـــنة وهم يأبرون النخل ، والرواية الثالثة قال أنس بن مالك : أن النبي(ﷺ)مر بقوم يلقحون .

٣ – في الرواية الأولى أن الرسول (ﷺ) لم يأمرهم بعدم التأبير ، بـــل قال : إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فهذا دليل واضح على أن الحديث ليس من دليل الأحكام ، حتى يؤخذ منه حكم بأننا أعلم بأمور دنيانا .

٤ – فـــي الرواية الثانية دليل واضح على أن النبي (ﷺ) أراد من قوله إجراء التجارب العلمية في عالم الزراعة سواءأكانت التجربة ناجحة أم لا فهـــي لمـــن أجراها ناجحة لأنه عرف الفرق بين التأبير مثلاً وعدم التأبير ولذلك قال لهم : " لعلكم " التي تفيد الترجي .

٥ – الــرواية الأولـــى فـــيها ما يغلق باب التأويل والتخمين ويلقم الحجـــر لكل متطاول على شرع الله ولذلك قال (ﷺ): " إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونـــي بالظـــن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوه فإني لن أكذب على الله (ﷻ) " [٢] .

٦ – لم يرد في الرواية الثانية لفظ " أنتم أعلم بأمور دنياكـــــم "

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي ، المجلد الخامس ، حديث رقم : ٢٣٦٣ .

[٢] انظر : صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ، المجلد الخامس باب وجوب امتثال ما قاله حديث رقم ٢٣٦١ .

بـــل جاء فيها " لعلكم " لو لم تفعلوا كان خيراً فتركوه فنفضت أو فنقصت قال فذكروا ذلك له فقال : " إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر " (١) .

ثالثاً : أفهام شاذة للنص القرآني

إن المؤامرات التي تدبر للأمة الإسلامية خطيرة جداً لأنها تستهدف الإســلام في عقيدته وشريعته وأخلاقه ، وتستهدف المسلمين رجالاً ونساء وأطفــالاً ، إنها مؤامرات تعمل على دس الأكاذيب والأباطيل على الإسلام لطــرده مـــن ميادــين الحــياة المختلفة ولطي تقاليده الاجتماعية والأدبية والاقتصادية والسياسية وإشعال الفتن والخلافات وإحياء العداوات والبغضاء والدعــوات الهدامة بين المسلمين جميعاً بقصد التقطيع والتفتيت والتجزئ ثم الهيمنة بعد ذلك .

إن الســيطرة الاســتعمارية الغربــية لأمتنا العربية والإسلامية لم تقتصر على الاحتلال العسكري والسياسي ، بل ارتدت ثياباً جديدة تعرف بالغزو الثقافي الفكري ، لتظل التبعية له مستمرة ، وذلك لأن الغزو الثقافي يعمــل على تكريس التجزئة ، وتفكيك عناصر الوحدة في الأمة الإسلامية ليتسنى للغرب أن يدخل العقول والبيوت بأفكاره وأيدلوجياته وثقافاته ونهج حــياته وأنماط معيشته ومن ثم يخرج منها الإسلام ثقافة وحضارة ومنهج حــياة . وذلــك لأن الدين الإسلامي في نظر الغرب لا يستحق البقاء لأنه – في نظرهم – يدعو إلى التحجر والتعصب والرجعية .

---

(١) المصدر السابق ، حديث رقم : ٢٣٦٢ .

يقول فيلسوف العلمانية الشهير " رينان " في كتابه مساهمة الشعوب السامية في تاريخ الحضارة ص ٢٩ عن الدين الإسلامي : " فيه سذاجة الفكر السامي المفزعة المقلصة للمخ البشري ، مغلقة منافذه ، في وجه كل لطيفة وكل إحساس رقيق وكل تأمل ونظر منطقي " (١) .

هكـــذا يعتقد " رينان " وأهل جلدته أن الإسلام ساذج مفزع مقلص للتفكير ، نوافذه مغلقة أمام كل خير ، وكل إحساس رقيق وكل تأمل .

ومن هنا ركز الغرب على محاربة الإسلام من خلال الغزو الثقافي وزرع مدارســـه وكلياته وجامعاته التنصيرية في معظم الدول والعمل على علمنة المناهج في باقي الكليات والجامعات الأخرى ، وذلك لتخريج جيش مـــن المثقفين العلمانيين الموالين لنظرياته ، ومناهجه في التفكير والبحث وخلق جيل يعمل ضد دينه ووطنه من موقع القيادة ، أصبح الأمر كما يقول شيخنا الفاضل محمد الغزالي "عليه رحمة الله " : " إنهم يعملون على خلق جـــيل زاهـــد في الانتماء لدينه غير متحمس لـــه ولا حريص عليه يهاب الأديـــان الأخـــرى ولا يهـــاب الطعن في عقيدته ويفضل الألسنة الأخرى ويســـتهين بلغـــته ويـــبجل زعماء العالم قديماً وحديثاً ، أما علماء الإسلام فليسوا أهلاً لاكتراثه وربما نال منهم وأزرى عليهم .

الغزو الثقافي الفكري بهذا الشكل يعمل على إصابة الأمة الإسلامية بعـــدة أمراض قاتلة كل واحد منها يكفي لموت الأمة . من هذه الأمراض الخطيرة ما يلي :

---

(١) مقال ديني بجريدة الوطن القطرية ٤ / ١٢ / ٢٠٠٠ د / محمد شعيب .

إصــابة الأمة بمرض عدم وضوح الرؤية الفكرية خاصة في أسس الديــن وثوابته من خلال جهات ومنظمات كثيرة جداً خاصة من العلمانيين والملحديــن الذين انسلخوا من دينهم والذين تخرجوا من مدارس وجامعات الغزو الفكري حيث يظنون أن حرية الفكر والتعبير تفتح لهم باب الاجتهاد والــنقد والــتأويل والطعن في الدين وثوابته دون ضوابط ، أو قيود ، أو مؤهلات علمية متخصصة تمكنهم من النهج المستقيم .

مَنْ هؤلاء الذين يعملون على تقويض أسس الدين من خلال مؤلفاته التــي لا تعتمد على أي منطق علمي أو عقلي ، الدكتور / محمد شحرور صــاحب " الكتاب والقرآن قراءة معاصرة " وهو كما يقول عن نفسه تعلم فــي الاتحاد السوفييتي فحصل منها على شهادة البكالوريوس في الهندسة المدنــية مــن سنة ١٩٥٨ – ١٩٦٤ م ، ثم انتقل من روسيا إلى الجامعة القومــية الإيرلــندية في " دبلن " للحصول على درجتي شهادة الماجستير والدكــتوراه فــي الهندسة المدنية في الفترة من ١٩٧٠ – ١٩٨٠ م ، وأن كــتابه اســتغرق أكــثر من عشرين عاماً حتى انتهى منه سنة ١٩٩٠م ، والكتاب يبلغ حجمه أكثر من ثمانمائة صفحة من الحجم الكبير ، وقد طبع أكــثر من أربع مرات في أقل من عام ونصف ، كما أنه انتشر في جميع أنحاء الوطن العربي حتى المغرب الأقصى .

والذي كان يطلع على الكتاب يتضح له عدة أمور خطيرة منها :

أن الكتاب مشحون بالكذب والافتراء للطعن في الإسلام وفي العقيدة والشريعة والأخلاق لتفريغ الإسلام من مضامينه الثابتة وأسسه المميزة .

أن مؤلف الكتاب استخدم طريقة خادعة أراد من خلالها أن يجعل القرآن الكريم غطاء لأفكاره وتصوراته الفاسدة لينخدع بها القارئ ويرهبه بها .

أن مؤلف الكتاب يخطئ كل علماء الأمة ويسفه آراءهم في كل ما أجمعوا عليه من علوم ومعارف وهو يريد من وراء ذلك التقليل والتهوين من شأنهم لينصرف الناس عنهم وعن تراثهم لتفتح الساحة الفكرية له ولأمثاله ليعبثوا بالقيم والأخلاق من خلال توهين النص سواء من القرآن الكريم أو السنة .

أن المؤلف يريد أن ينحى السنة النبوية من حياة الناس لأنه يعلم أن تنحية السنة قضاء على القرآن الكريم ، لأن السنة هي البيان القولي والعملي للقرآن الكريم ولا يمكن تنفيذه والعمل بكثير من أحكامه إلا بالسنة كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك .

أن المؤلف ظن أنه يخاطب أناساً جاهلين بدينهم ولغتهم فحاول أن يستخف بعقل القارئ استخفافاً يزري بكل منطق علمي ، فقد قام بتزييف حقائق اللغة والادعاء بما ليس فيها ، وهذا يدل على أنه لا يمتلك الأدوات المعرفية التي تؤهله لأي دراسة من هذا النوع وأنه يجهل بديهيات اللغة وعلومها وأن جهله بها لم يكن جهلاً بسيطاً ، بل هو جهل مركب ، كما أن تناقضاته في الموضوعات التي طرحها أكثر من أن تُعد ، وسوف أسوق بعض الأمثلة الخطيرة التي طرحها المؤلف في كتابه .

المثال الأول :

مـن تحـريفاته التي تدل على عدم فهمه للنص ما ذكره في تفسير قولـه تعـالى : ﴿ زُيِّـنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [١] .

وقولـه جـل شـأنه : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] .

إن هـذا الفهـم مناقض لأي نظام فكري سليم ، وأي نظام لغوي ، سواء أكان في اللغة العربية أم في غيرها من اللغات ، إذ يقول في هاتين الآيتيـن : وردت لفظة النساء ، فإذا كانت النساء هنا جمع امرأة وقعنا في طـريق مسـدود لا مخرج منه ، وهو في آية آل عمران ورد اسم إشارة بقوله : " ذلك متاع الحياة الدنيا " ففي هذه الآية أصبحت المرأة متاعاً " ما ينـتفع بـه من الأشياء " وقد عوملت فعلاً هكذا على مدى قرون على أنها شـيء من الأشياء . وفي آية البقرة : " فأتوا حرثكم أنى شئتم " فناقضت الآية التي قبلها ، وهي الآية رقم (٢٢٢) والتي جاء فيها : " ويسئلونك عن المحـيض قـل هـو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهـرن فـإذا تطهـرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " ثم يقول سيادته بعد ذلك :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٣ .

" هـذا الفهـم الخاطئ للآيتين أدى لاعتبار المرأة شيئاً من الأشياء ومـع شديد الأسف فإن الفقه الإسلامي الموروث يعتبرها كذلك ، وينسب ذلك إلى الله ورسوله " [١] .

يعلق الأستاذ / عبد الرحمن حسن حبنكة على ذلك بقوله :

" إن أطفـال المـدارس الإعدادية فمن دونهم لا يفهمون هذا الفهم الـتافه السخيف الذي فهمه واضع هذا الكلام ، أو أراد أن يجعله هو الفهم الذي فهمه فقهاء المسلمين .

إن اسم الإشارة " ذلك " في آية آل عمران يشير إلى ما يلي :

١ – الشهوات من النساء ، لا إلى ذوات النساء .

٢ – البنين وهم الأولاد الذكور .

٣ – القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

٤ – الخيل المسومة .

٥ – الأنعام .

٦ – الحـرث ، أي : امـتلاك الأراضـي الزراعـية والبساتين والجنات واستغلالها والانتفاع منها .

وكلمـة " ذلك " في اللغة العربية يشار بها إلى العقلاء ، فيقال : لغة ذلك الرجل . ويشار بها إلى غير العقلاء من الأحياء والأشياء . وهي هـنا

---

[١] الدكـتور / محمـد شـحرور : الكتاب والقرآن قراءة معاصرة ، الطبعة الثانية ، دار الأهالي للطباعة والنشر سنة ١٩٩٠ ، ص ٥٩٥ .

أشارت إلى الشهوات من النساء ، لا إلى أشخاص النساء وذواتهن .

فكـيف ترك الكاتب المحرّف موضوع الشهوات التي مع النساء ، ومـن طبيعتهن ، والتقط كلمة " النساء " فقط الواردة في النص ليبني على هذا الالتقاط قرينة .

علـى أن أحداً من علماء المسلمين وفقهائهم ومثقفيهم في تاريخهم الطويل لم يعتبر النساء شيئاً من الأشياء .

بـل إن الإسلام الذي فهمه علماء المسلمين وفقهاؤهم هو الذي أنقذ النساء ، ورفعهن من هذا الحضيض الذي كن فيه لدى أمم كثيرة سابقة .

أشـارت لفظـة " ذلـك " في الآية إلى أشخاص البنين وهم أولاد الإنســان الذكور ، فهل جعلتهم الآية من الأشياء لمجرد جمعهم مع الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث في محبوبات الناس من الحياة الدنيا ؟!

إذا قـال إنسان ما : أنا أحب أبي وأمي وأولادي والذهب والفضة واقتناء الخيول والأنعام وامتلاك الأراضي ، فهل يقول له عاقل من الناس قد جعلت بهذا الجمع أبويك وأولادك أشياء لا عقل لها ولا علم عندها ؟!

مـا أعجب هذا الفهم الذي لا يفهم مثله البُلْه والمعوقون فكرياً من الناس ، لظهور سُخفه وسقوطه منطقياً ولغوياً .

لكـن هـذه طريقة المفكرين من المنصّرين وغيرهم ، إنها طريقة لا تملك قيمة فكرية مطلقاً ، لذلك فهم يطرحونها بين قوم لا يفهمـــون

العربـــية ، ولا ينطقون بلسانها ، وقد كان من الأكرم لملكاتهم الفكرية أن لا يوردوهـــا ، لأنهـــا تدل على سفاهة وقلة عقل ، وعدم معرفة بموازين المعـــرفة السليمة ، وعجز عن تقديم حجج مقبولة يقبلها أهل الفكر والرأي والعقل الصحيح .

أمـــا أن يقدمهـــا إنسان عربي لقراء من العرب ولديهم ثقافة تعتمد علـــى ما يفهمونه باللسان العربي فهو أمر عجيب جداً ، ومستنكر من قبل كل ناطق باللسان العربي [١] .

المثال الثاني :

يحاول مؤلف " الكتاب والقرآن قراءة معاصرة " أن يزعزع العقيدة الإسلامية من نفوس المسلمين من خلال " النص القرآني " ، فبعد أن يدور مـــع القارئ في أنفاق متعرجة مظلمة على غير هدى من العقل أو المنطق يصل إلى نتيجة عجيبة وهي أن نشأة الحياة بدأت بالبشر أولاً وبعد ملايين الســـنين من خلال قوانين الجدل وصراع المتناقضات نفخ الله الروح فيمن اصـــطفاهم مـــن البشر فأدى ذلك إلى أنسنة آدم وارتقائه من عالم المملكة الحيوانية إلى الأنسنة الكاملة .

ولذلك فآدم هو أبو الجنس الإنساني لا الجنس البشري ، وأن الروح هـــي التي حولت البشر إلى إنسان أي نقلته من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقل وواعٍ .

---

(١) راجـــع : الـــتحريف المعاصـــر في الدين تسلل في الأنفاق بعد السقوط في الأعماق ، للدكتور عبد الرحمن حسن حبنكة ، ص ٢٢٨ – ٢٣٠ .

وبعـد أن يستشهد بآيات كثيرة من القرآن الكريم على طريقة " ولا تقـربوا الصلاة " يقول سيادته !: " والدليل على ذلك أن الله عندما تحدث عن البشر جاء قولـه " إني خالق بشراً " وأن لفظة الخلق تعني التقدير قبل التنفـيذ ، وعـندما تحدث عن آدم قال : " إني جاعل " والجعل هو عملية التغيير في الصيرورة . وبهذا يكون سيادته توصل إلى الحلقة المفقودة التي لـم يسـتطع أن يتوصـل إليها كل من " لامارك " عالم النبات والحيوان الفرنسـي ، و" بوفـون " أول عالم بيولوجي يستبعد نظرية الخلق الخاص للإنسـان ، و" دارون " صـاحب نظـرية النشـوء والارتقاء والانتخاب المقصود ، والعالم الروسي " الكسندر اوباين " .

وبعد أن يجعل المؤلف آيات القرآن الكريم غطاء لأفكاره المريضة يقـول : " إن نظـرية النشـوء والارتقاء لدارون تعد نموذجاً حياً ممتازاً للتأويل " [١] .

ثـم يقـول : " إن هذا الفهم لنظرية المعرفة القرآنية يرد على أوهام ذوي الفهـم المثالي للقرآن الذين يرفضون نظرية التطور والارتقاء ويسخرون مـن نظرية دارون ، وجوابنا هو أن الله تعالى نفخ الروح في البشر وهو فصـيلة مـن المملكـة الحيوانية فأدى ذلك إلى أنسنته وارتقائه عن عالم المملكـة الحيوانية . ولو أنه نفخ الروح في فصائل أخرى لارتقت أيضاً ، إن نفخة الروح هي الحلقة المفقودة في نظرية دارون حول الأنسنة " [٢]

---

[١] راجع : الدكتور محمد شحرور ، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة ، ص ١٩٥ .

[٢] المصدر السابق ، ص ٢٥٣ .

ثـم بعد أن يطرح مسائل متعددة ونظريات متضاربة عن مصطلح البشـر يقـول : " لقـد ورد مصطلح البشر في الكتاب ليعبر عن الوجود الفيزيولوجـي لكائـن حي لـه صفة الحياة كبقية المخلوقات الحية ، وقد شـرحت فـي القانون الأول للجدل كيف نمت الحياة وتطورت عن طريق البث الذي يحتوي على الطفرات الحياتية التي أدت إلى ظهور البشر"(١) .

ثـم يقـول بعد ذلك : " إن الانتشار في الأرض حصل في مرحلة البشر قبل نفخة الروح ، وأن البشر كان منتشراً قبل مرحلة الأنسنة ، وأن البشـر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان حيث إن الإنسان هو كائن بشري مستأنس " (٢) .

وبعد أن يذكر جملة من الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة البشر وكلمة الناس يقول : " الآيات التي جاء فيها الإنسان " الناس " تعني الكائن العـاقل : لقد ورد الإنسان والناس في عدة آيات بمعنى الكائن العاقل ... فالإنسـان هـو البشـر المستأنس غير المتوحش ، أي له علاقة اجتماعية واصلة مع غيره " (٣) .

وفـي ردنا على ما ذكره الدكتور محمد شحرور في تفسيره لسبع وثلاثين نصاً من نصوص القرآن نوضح ما يلي :

[١] إنه لم تكن هناك حلقة مفقودة في خلق الإنسان ، فالله تعالى

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

كما قال عن آدم (عليه السلام): ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [١] والجعل في هذه الآية كما يفهمه علماء الأمة التغيير في صيرورة الطين الذي هو شيء من الأشـــياء ، ومـــع هذا قال عنه كذلك : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَـإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [٢] قال أيضاً : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [٣] ، وهذه الآيـــات توضـــح بما لا يدع مجالاً للشك أو للتأويل أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً من طين ومن ثم لا يجوز لأي إنسان أن يدعي أن الإنسان نشأ من البشر الحيواني كما ادعى سيادته .

[٢] لقـــد ذكـــر الله لـــنا مـــثال عن نبيه عيسى (عليه السلام) لو قرأه " شـــحرور" ومن على شاكلته من العلمانيين والملحدين لعلموا تفاهة أفكارهم قـــال تعـــالى في بيان معجزاته لعيسى (عليه السلام): ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [٤] .

فإذا كان عيسى (عليه السلام) يخلق من الطين بإذن الله ، أيكون خلق آدم من طين أعجب من خلق عيسى حتى ننكر الخلق المستقل له ؟

[٣] إن الـــزعم بأن الإنسان مجرد حيوان متطور عن حيوان لم يعتقد بصحتها إلا الملحدون الذين يعتقدون أن مطالب الإنسان تنحصر فقط في الطعام والشراب والمسكن والجنس .

---

[١] سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

[٢] سورة الحجر ، الآية : ٢٦ .

[٣] سورة السجدة ، الآية : ٧ .

[٤] سورة آل عمران ، الآية : ٤٩ .

[٤] إن هذه النظرية لم يعتقد بصحتها إلا أصحاب الفلسفة المادية الذين يعتقدون أن مطالب الإنسان تنحصر في مطالب المعدة ، أما مطالب العقـل والروح من عقيدة وشريعة وأخلاق ، وإرادة واختيار وحرية تفكير فهي أمور لا يلتفت إليها !!

إن نظرة الإسلام للإنسان تختلف عن هذا الفهم المغشوش والتفكير المـريض لأن مـا ذكره القرآن الكريم عن خلق آدم واضح في دلالته أنه لا فـرق إطلاقـاً بين لفظة البشر ولفظة الإنسان حيث إنه يفرق بين لفظة البشـر ولفظة الإنسان مستنداً إلى دليل عجيب وهو أن كلية الطب تسمى كلـية الطـب البشري لا الإنساني ، لأنها تدرس الإنسان بصفته كائناً حياً مشـابهاً لبقية المخلوقات ، وبالمقابل هناك علوم تسمى العلوم الإنسانية لا البشرية لأن الإنسان هو الذي أوجدها ، كالقانون والسياسة والأدب والآداب والفلسفة [١].

وهـذا الكـلام لا يمثل أي براهين علمية ولا أدلة عقلية ولا علاقة لـه أصلاً بأي منهج علمي ، وهو من ثم لا يحمل أي احترام لعقل القارئ وفكـره ، إلا إذا اعتـبرنا أن التصورات والافتراضات المتخيلة هي من الحقـائق العلمية . ورفضنا كلام الله المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه حيث أطلق القرآن على الإنسان لفظ : " بشر " ولفظ : " إنسان " وأنه خلق من طين .

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَـرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ

---

[١] راجع : الكتاب والقرآن قراءة معاصرة ، ص ٢٨٥ .

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [١] ، وقال تعالى ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [٢] .

وقد أبان هذا النص أن البشر وهو آدم قد خلقه الله من طين ، لأن آدم هو الإنسان الذي خلقه الله من طين .

يقول الدكتور يحيى هاشم : " لا شك أن الأخبار الصحيحة قد جاء بها القرآن الكريم فيما يتعلق بخلق آدم (عليه السلام)، وما ورد في القرآن بهذا الخصوص لا يترك احتمالاً لإدخال آدم (عليه السلام) في سلسلة التطور التي نسجتها افتراضات نظرية داروين ، والذي خلق الإنسان وميز الناس في أصواتهم وأشكالهم وجعل لكل إنسان سماته ومميزاته فلا يتفق صوت مع صوت ولا صورة مع صورة بل لا تتفق بصمة إبهام مع بصمة إبهام في الملايين من الناس ، أيعجز عليه أن يخلق آدم خلقاً مستقلاً ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [٣] .

---

[١] سورة ص الآية : ٧١ - ٧٢ .
[٢] سورة السجدة الآية : ٧ .
[٣] سورة الإسراء ، الآية : ٧٠ .

الفصل الخامس

المنهج النبوي في دعوة اليهود للإسلام

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ركائز المنهج النبوي في دعوتهم للإسلام .

المبحث الثاني : منهج الدعوة في الرد على الحرب اليهودية .

المنهج النبوي في دعوة اليهود للإسلام

لما كان الإسلام ديناً عالمياً جاء لجميع الناس على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأوطانهم وعقائدهم وقد وضحت هذه الحقيقة ورسول الله (ﷺ) في مكة ، فقد جاء في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [١] . وانطلاقاً من هذا المبدأ ، وقياماً بهذا الواجب الذي كلفه الله به ، صدع رسول الله بالحق ، من خلال منهج حكيم لا يفرق بين إنسان وآخر ، فخالق الناس ومربيهم هو الله تعالى.. ويتأتى فيمن شملهم عموم رسالة الإسلام اليهود ، وعن المنهج النبوي في دعوتهم للإسلام يكون حديثنا بإذن الله تعالى في مبحثين :

المبحث الأول

ركائز المنهج النبوي في دعوة اليهود للإسلام

اتصل الرسول باليهود ودعاهم إلى الإسلام ورغبهم فيه من خلال عدة ركائز منها ما يلي :

أولاً : أوجب لهم النصرة والحماية :

المتأمل في آيات القرآن الكريم التي نزلت على النبي(ﷺ)وهو في مكة يجد أنها تحدثت عن اليهود وعن أخلاقهم وصفاتهم لتبصر المسلمين بحقيقة اليهود ، لأنهم سيتعاملون معهم بعد سنوات ، فلما هاجر رسول الله(ﷺ)من مكة إلى المدينة المنورة ، نظم رسول الله(ﷺ)أهل المدينة وكتب رسول الله(ﷺ)وثيقة تلزم الجميع ، مسلمين ، ويهود ، ومشركين ، وتحدد

---

[١] سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .

لكـــل فئة ما لها من حقوق وما عليها من واجبات " وأوجب لليهود النصرة والحماية ، واشترط عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يمدوا يداً بأذى . وقد ورد في هذه الوثيقة الدستورية الهامة بنود توضـــح المـــنهج في التعامل مع اليهود الذين يسكنون في المدينة من هذه البنود ما يلي :

وأنـــه مـــن تبعـــنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه ، وأهل بيته .

وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

---

[١] يوتغ : أي يهلك نفسه .

وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف .

وإن البر دون الإثم .

وإن موالي ثعلبة كأنفسهم .

وإن بطانـــة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (ﷺ)

وإنه لا ينحجز على ثار جرح .

وإنه من فتك بنفسه فتك ، وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله (ﷻ) ، وإلى محمد رسول الله (ﷺ) .

وإن الله أتقى على ما في هذه الصحيفة وأبره .

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنه إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه .

وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم .

وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن ، إلا من ظلم وأثم .

وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (ﷺ) [١] .

تأملات في هذه الوثيقة :

١ – حددت هذه الوثيقة واجبات المسلمين وواجبات اليهود في المدينة .

٢ – قررت مبدأ حرية العقيدة والتدين والعبادة للمسلمين واليهود .

٣ – فرضت على المسلمين أن يدافعوا عن يهود المدينة ويحموهم بكل ما يستطيعون .

---

[١] راجع : السيرة النبوية لابن هشام (١ / ٥٠٣ – ٥٠٤) ، والسيرة النبوية لابن كثير ص ٣٢٠ – ٣٢٣ .

٤ – أوجبت على اليهود أن يشاركوا في الدفاع عن المدينة ، وأن يشاركوا في النفقات الحربية التي تلزم للدفاع عن المدينة .

٥ – أوجبت هذه الوثيقة المحافظة على العهد وعدم نقضه ، وأن من نقضه أو نكث فيه يتحمل المسئولية المترتبة على ذلك هو وأهله ولا يتعدى ذلك إلى بقية القبائل اليهودية الأخرى .

٦ – أوجبت هذه الوثيقة وجوب التحاكم إلى رسول الله (ﷺ) في الأمور الخطيرة التي تمس أمن المجتمع .

٧ – أوجبت التناصر بين أهل هذه الوثيقة من مسلمين وغيرهم ، ونصرة المظلوم والوقوف بجانبه حتى ينصف من ظالمه ، ومطاردة الظالم وعقابه أياً كان هذا الظالم .

ثانياً : دعوة اليهود إلى الإسلام :

وجه القرآن الكريم دعوته إلى اليهود وطالبهم بأن يؤمنوا برسول الله (ﷺ) متبعاً معهم أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة من خلال تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وحذرهم القرآن من الكفر وعاقبته ، أو أن يلبسوا الحق الذي يعرفونه بالباطل فقال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [١] .

---

[١] سورة البقرة الآية : ٤٠ – ٤٢ .

بهذا النداء الطيب الحكيم ، بيا أبناء الأنبياء والمرسلين اذكروا النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى ، هكذا كان خطاب القرآن الكريم لهم .. وكان المتوقع منهم أن يكونوا سنداً وعضداً للنبي(ﷺ)، وأن يصدقوه ويلتفوا حوله حيث إنهم كانوا يبشرون ببعثته ويستفتحون به على العرب.

إلا أن اليهود مع كل هذا لم يقابلوا الدعوة الإسلامية مقابلة حسنة ، بل قابلوها بالكيد والمكر والجحود والحجاج وبالسخرية والاستهزاء ، ومع هذا نزلت آيات القرآن الكريم تنادي عليهم مرة ثانية وتذكرهم بما كان من نعمة الله على آبائهم حيث نجاهم من عذاب فرعون وظلمه وطغيانه ، وأهلك فرعون وهم ينظرون إليه ، وعفا عنهم بعد أن عبدوا العجل ، وكان في هذا التذكير ما يكفي لأن يقبلوا دعوة النبي (ﷺ) ، قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ . وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ... ﴾ [١] .

وذكرهم بما كان من آبائهم – أيضاً –عندما لم يصبروا على طعام

---

[١] سورة البقرة الآية ٤٧ – ٥٣ .

واحد ، وطلبوا أن يأكلوا من نبات الأرض ، وما كان من مصيرهم المؤلم عندما اعتدوا على أنبياء الله بغير الحق فقال (ﷻ): ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ... ﴾ (١) .

ثالثاً : دعاهم بأسلوب هادئ :

الناظر إلى منهج القرآن الكريم في دعوة اليهود للإسلام يجد أنها كانت بأسلوب هادئ حكيم ، فبعد أن ذكرهم بالنعم الكثيرة كما بيّنا سابقاً. نجد هنا أن القرآن الكريم بيّن المنهج الذي سوف يسير عليه الرسول مع المدعوين ، وأن هذا المنهج يتضمن العفو عن كثير مما يمكن أن يكون قد صدر أو يصدر ، ويتضمن أيضاً توسعة الصدر للمدعوين ، كما يتضمن الترغيب المحبب وهذه بعض الآيات التي تضمنت هذا المنهج في دعوة اليهود :

١ - قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ.. ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٦١ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٢٠ .

٢ – قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ... ﴾ (١) .

٣ – قال (ﷺ) : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... ﴾ (٢) .

٤ – يقول تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ... ﴾ (٣) .

موقف اليهود :

كان موقف اليهود من دعوة النبي(ﷺ)عجيباً غريباً ، فقد قابلوه بمواقف عدائية تدل على بغضهم للحق ، وحبهم للباطل كما حكى القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٦٤ .

(٢) سورة المائدة الآية : ١٥ – ١٦ .

(٣) سورة المائدة الآية : ١٩ .

(٤) سورة البقرة الآية : ١١١ – ١١٢ .

وقال سبحانه مبيناً ما تكنه نفوس أهل الكتاب للرسول(ﷺ)ولدعوته ولأمته : ﴿ وَلَـنْ تَرْضَـى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [١] .

رابعاً : إقامة الحجج والبراهين على صدق رسالته :

لقـد أقام الله الحجج القاطعة والبراهين الساطعة لليهود على صدق رسـالة رسـوله (ﷺ) ، ولن نتحدث عن البراهين الساطعة الموجودة في القـرآن الكـريم ، ولكـن سوف نتحدث عن الحجج والبراهين التي أثبتها التاريخ ، ووردت في السير والكتب الموثقة من خلال أربعة جوانب :

الجانب الأول :

شـهادة أحـبارهم على صدق رسالته (ﷺ) حيث شهد عبد الله بن سـلام وهو حبر من أحبارهم ، ففي الحديث الذي رواه الإمام البخاري : " أن ابـن سـلام قال حينما رأى رسول الله (ﷺ): أشهد أنك رسول الله ، وأنـك جئت بحق ، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم واسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت ... فأرسل نبي الله ﷺ فأقـبلوا فدخلـوا عليه ، فقال لهم رسول الله (ﷺ) : يا معشر يهود ويلكـم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً ، وإني جئتكم بحق فأسلموا ، قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبي (ﷺ) ثلاث

---

[١] سورة البقرة الآية : ١٢٠ .

مـــرات ، قال : فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم .

قال : أفرأيتم إن أسلم ؟

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم .

قال : أفرأيتم إن أسلم ؟

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم .

قـــال : يا ابن سلام اخرج عليهم ، فخرج فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله فـــوالله الـــذي لا إلـــه إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ [١] .

ولقـــد شهد ميمون بن بنيامين على ذلك حينما حكمه اليهود في ذلك فســـبوه وكذبـــوه وشتموه ، فأنزل الله - تبارك وتعالى- فيهم [٢] : ﴿ قُلْ أَرَأَيْـــتُمْ إِنْ كَـــانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ [٣] .

ولقد شهد أيضاً مخيريق بصدق رسالة الرسول (ﷺ) والواجب على

---

[١] انظر : صحيح البخاري بفتح الباري(٨ / ٢٥٣ - ٢٥٤) والسيرة النبوية لابن هشام (١ / ٤١٦) .

[٢] الإصابة في تمييز الصحابة (٣ / ٤٧١) .

[٣] سورة الأحقاف ، الآية : ١٠ .

اليهود أن يؤمنوا بالرسول (ﷺ) وينصروه على المشركين ، فلما لم يستجب له أحد خرج فقاتل مع الرسول حتى استشهد بعد أن أوصى بماله لرسول الله (ﷺ) [١] .

الجانب الثاني :

أن التوراة قد شهدت برسالة الرسول محمد (ﷺ) ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الشهادة في أكثر من موطن ، ولكن أحبار اليهود أنكروا ذلك وكتموه عن الناس ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [٢] .

قال الإمام ابن كثير في تفسيره : (قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمد (ﷺ) ، ثم أخبر أنه يلعنهم في كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء ، والطير في الهواء ، فهؤلاء بخلاف العلماء ، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) [٣] .

لقد أخذ الله ميثاق النبيين أن يؤمنوا برسول الله (ﷺ) وأن يبشروا أقوامهم بصفته ، وأن يأخذوا عليهم العهد والميثاق بالإيمان به ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ٥١٨) .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٥٩ .

(٣) تفسير ابن كثير (١ / ٣٥٢) وانظر تفسير ابن جرير (٣ / ٢٤٩) .

مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

وقال الواحدي في أسباب نزول قوله -سبحانه وتعالى- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقال الواحدي في أسباب النزول : (قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس – رضي الله عنهما- : نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والفضول ، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعث منهم ، فلما بعث من غيرهم خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رياستهم فعمدوا إلى صفة محمد (ﷺ) فغيروها ، ثم أخرجوها إليهم ، وقالوا : هذا نعت النبي الذي يخرج في آخر الزمان لا يشبه نعت هذا النبي الذي بمكة ، فإذا نظرت السفلة إلى النعت المغير وجدوه مخالفاً لصفة محمد فلا يتبعونه) (٣) .

وكتب رسول الله (ﷺ) إلى يهود خيبر كتاباً هو : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، صاحب موسى وأخيه ، والمصدق لما

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٨١ – ٨٢ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٤ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤ .

جـاء بـه موسـى : ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لـتجدون ذلك في كتابكم : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَـاءُ بَيْـنَهُمْ تَـرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَـطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) ، وإني أنشدكم بالله ، وأنشدكم بما أنزل عليكم وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم مـن أسباطكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجـاهم مـن فرعون وعمله ، إلا أخبرتموني : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ، قد تبين الرشد من الغي ، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه " (١) .

الجانب الثالث :

من الحجج الدالة على صدق رسالة الرسول (ﷺ) بالنسبة لليهود أن الـيهود فـي المديـنة كانوا يهددون المشركين في مكة بالنبي (ﷺ) وأنهم سيقاتلونهم مع النبي (ﷺ) قتل عاد وإرم (٢) ، بل إنهم كانوا يسألون الله أن يبعـثه مـنهم فقـد روى البيهقـي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة - رضي الله عنهم- قالوا : " كانت العرب تمر باليهود فيؤذونهم

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ٥٤٤ - ٥٤٥) .

(٢) المصدر السابق (٢ / ١٣٣) .

وكانوا يجدون محمداً (ﷺ) في التوراة فيسألون الله تعالى أن يبعثه ويقاتلون معه العرب ، فلما جاءهم كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل "(١) .

وقد أكد القرآن الكريم على أن اليهود يعرفون رسول الله (ﷺ) بصفته ورسالته في التوراة التي أنزلها على موسى (عليه السلام) قال سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

إنهم يعلمون صفته وخروجه (ﷺ) كما يعلم أحدهم ابنه دون شك : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ورد في الصحيح وغيره أحاديث تبين صفة النبي (ﷺ) في التوراة منها : ما رواه البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو ابن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله (ﷺ) في التوراة ، قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي

---

(١) الإمام محمد بن يوسف الصالحي ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ج ٣ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٥٤٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٧ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٤٦ .

إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً " (١) .

إن علماء اليهود كانوا يعلمون صدق نبوة محمد (ﷺ) فقد أكد القرآن هذه الحقيقة ، كما أكد الواقع ذلك : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (٢) ، ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣) .

وروى ابن هشام في قصة غزوة بني قريظة قول كعب بن أسد : " يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم . قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وإنه للذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ونستبدل به غيره " (٤) .

وروى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس-رضي الله عنهما- ، وأبو نعيم عنه من طرق ، وعبد بن حميد

---

(١) رواه البخاري ، كتاب البيوع باب كراهية الصخب في الأسواق (٤ / ٤٠٢) .

(٢) سورة الرعد الآية : ٤٣ .

(٣) سورة الشعراء : ١٩٨ .

(٤) مختصر سيرة ابن هشام ص ١٧٥ .

وأبو جرير وأبو نعيم عن قتادة : (أن يهود أهل المدينة قبل قدوم رسول الله – عليه الصلاة والسلام– كانوا إذا قاتلوا من يليهم من مشركي العرب من أسد وغطفان وجهينة وعذرة ، يستفتحون يدعون الله على الذين كفروا ويقولون : اللهم ابعث النبي الأمي الذي نجده في التوراة الذي وعدتنا أنك باعثه في آخر الزمان ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله . وقال معاذ وبشر بن البراء : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته) [١] .

الجانب الرابع :

إن المؤرخين يخبروننا أن سبب مقدم اليهود إلى الحجاز هو ما جدوه مكتوباً عندهم في التوراة أن النبي المنتظر الذي اقترب ظهوره يعيش في الحجاز وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين ، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة ، فلما رأوا تيماء وفيها نخل نزلها طائفة منهم ، وظن طائفة أنها خيبر فنزلوها ، ومضى أشرفهم وأكثرهم فلما رأوا يثرب سبخة وحرة وفيها النخل قالوا هذه البلد التي تكون مهاجره [٢] .

---

[١] المصدر السابق (٣ / ٥٤٨) .

[٢] انظر : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تأليف : نور الدين علي بن أحمد السمهودي تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط إحياء دار التراث العربي ، بيروت لبنان (١ / ١٦٠) .

المبحث الثاني

منهج الدعوة في الرد على الحرب اليهودية

مـــع وجـــود الحجـــج والبراهين على رسالة الرسول (ﷺ) ، ومع صديق اليهود بهذه الحجج ، إلا أنهم أعرضوا عن دعوته وأخذوا يناصبونه العـــداء حسداً وكبراً وغروراً ، وذلك لأن الرسول (ﷺ) من العرب وليس من اليهود توضح ذلك السيدة أم المؤمنين " صفية بنت حيي بن أخطب " : " كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه ، قالت فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة ونزل قباء في بني عمـــرو بـــن عوف ، غدا عليه أبي حيي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين ، قالت فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني ، قالت : فهششت إليهما كما كنت أصـــنع فـــوالله مـــا التفت إليّ واحد منهما ، مع ما بهما من الغم ، قالت : وسمعت عمي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب : أهو هو قال : نعـــم والله ، قال : أتعرفه وتثبته ، قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قـــال : عداوته والله ما بقيت "[١] . ولهذا أصروا لـــه العـــداوة ونابذوه الشـــر ودفعهـــم غـــرورهم إلى الإنكار والمكابرة والمهاطرة والاستهزاء وسلكوا في سبيل هذه العداوة وسائل عديدة منها ما يلي :

١ – الحملات الإعلامية :

شن اليهود على رسول الله (ﷺ) والذين آمنوا معه حملات إعلامية

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٥١٨ ، ٥١٩) .

لتشـــويه صـــورته وتنفير الناس منه وخلخلة الثقة بينه وبين الناس وأخذوا يهجون رسول الله (ﷺ) ويحرضون الأعداء عليه ويتشببون بنساء المسلمين وقـــد تولـــى كبر هذه الحملات كعب بن الأشرف وأبو رافع وسائر أحبار يهود [١] .

واستاء رسول الله (ﷺ) من كلام كعب بن الأشرف فقال : " اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت من إعلانه الشر وقوله الأشعار ، من لي بابن الأشرف فقد أذاني " [٢] .

موقف الرسول (ﷺ) من هذه الحملة :

كان موقف النبي (ﷺ) من الحملات الإعلامية المضللة ، الاستمرار فـــي الدعوة والثبات على الموقف ، وعدم المساومة أو التراخي والتنازل عن الهدف .

ووقفت الجماعة المؤمنة تفند مزاعم المشركين وتدحض مفترياتهم وتطـــارد أصـــحاب هذه المفتريات وتعاقبهم العقوبة الزاجرة قبل استفحال خطـــرهم ، فقام محمد بن مسلمة واستأذن من رسول الله (ﷺ)في أن يقوم بقتل كعب بن الأشرف فقتله .

روى الإمام البخاري – رحمه الله – في صحيحه بإسناده إلى جابر ابن عبد الله – رضي الله عنهما– قال : قال رسول الله (ﷺ): " من لكعب ابن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله " .

---

[١] **السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٥٤)، والمغازي للواقدي (١ / ١٨٧) .**

[٢] **فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٨ / ٣٣٩ ، ٣٤٠) .**

فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟

قال : نعم . قال : فأذن لي أن أقول شيئاً .قال : قل .

فأتـــاه محمد بن مسلمة [١] فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عـــنانا ، وإني قد أتيتك استسلفك ، قال : وأيضاً والله لتملنه . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى تنظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلمنا وسقاً أو وسقين .

فقـــال : أرهنوني . قالوا : أي شيء تريد ؟ قال : أرهنوا نساءكم . قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فأرهنوني أبناءكم .

قالوا : كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم فيقال : رهن بوسق أو وسقين ؟ هذا عار علينا ، ولكن نرهنك اللأمة ، قال سفيان : يعني السلاح .

فوعـــده أن يأتيه ، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة فدعـــاهم إلـــى الحصـــن فـــنزل إليهم ، فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال : إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة .

قالت : أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم .

قال : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة ..

وجـــاء محمـــد بن مسلمة برجلين [٢] وقال : إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فاضربوه فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفح من ريح الطيب .

---

(١) رواه البخاري ج٧ حديث رقم (٣٢٧٠) .

(٢) جاء في كتب السيرة أن الذين قاموا بقتله خمسة نفر منهم محمد بن مسلمة .

فقال : أتأذن لي أن أشم رأسك ؟
قال : نعم فشمه ، ثم أشم أصحابه .
ثم قال : أتأذن لي ؟ قال : نعم .
فلما استمكن منه قال : دونكم فقتلوه ، ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه (١) .

لقــد أمر رسول الله ﷺ بقتل كعب بن الأشرف لأنه نقض العهد ، وعقوبــة نــاقض العهد القتل ، ولأنه شتم الرسول وأذاه وهجاه ، واتهمه بأشــياء كثــيرة ، كمــا بلغــت به الوقاحة فامتد لسانه إلى نساء المسلمين فشبب بهن .

ما يستفاد في عصرنا الحاضر من حملات اليهود على الرسول :

لقــد حــدد القــرآن الكريم أن مصدر الإشاعات الكاذبة والحملات الإعلامــية المضللة تأتي من جهات ثلاث : إما من اليهود أو النصارى أو المشــركين قــال تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا... ﴾ (٢) .

وهــؤلاء جمــيعاً يــتفقون على النيل من الإسلام ومحاربته ، وقد أخــبرنا الــتاريخ بما وقع من هؤلاء جميعاً من إشاعات كاذبة مضللة من ذلك ما يلي :

١ – الحركات الباطنية القرمطية ، التي أسسها اليهودي اليمنــي

---

(١) صحيح البخاري (٨ / ٢٣٩ – ٢٤٢) .
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨٦ .

عبد الله بن سبأ واليهودي الشامي ميمون بن ديصان القداح .

٢ – يحدثنا التاريخ عن حركة عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام في عهد عمر بن الخطاب (ﷺ) حتى اطمأن الناس إليه ، ثم أخذ ينفث سمومه في الناس حتى استطاع أن يؤلب من أصحاب النفوس المريضة من جميع الأقطار فقاموا بقتل سيدنا عثمان (ﷺ) .

٣ – وفي عهد علي بن أبي طالب استطاع أن يوقع الفتنة بين عليّ وأم المؤمنين عائشة حتى تراشقوا بالسهام .

٤ – أشاع أن لكل نبي وصياً وعلي بن أبي طالب وصي رسول الله (ﷺ) وخليفته ثم تدرج حتى أوصله إلى درجة النبوة ، ثم أشاع عنه أنه إله ، أو حلت فيه روح الإله ، فأنكر ذلك علي بن أبي طالب ونفاه إلى ساباط بالمدائن ، ومن مفترياته أن علياً لم يمت وإنما رفع كما رفع عيسى -عليه السلام - ، وقال بالتناسخ ومفاده أن الجزء الإلهي الذي كان في علي قد تناسخ من علي إلى أئمة آل البيت كل عن الآخر .

وما نقرؤه اليوم في كثير من الصحف الأجنبية التي تطعن في الرسول (ﷺ) وتثير الشكوك حول دين الإسلام ، وما ينشر من كتب تنفق عليها الأموال الطائلة وتهاجم رسول الإسلام (ﷺ) وتنال منه ، وتتهمه بتهم في غاية القبح وسوء الأدب ، نجد وراءها اليهود أو النصارى أو المشركين .

٥ – إن حركة الاستشراق ومعظم علمائها نجدهم من يهود أو من نصارى وقليل منهم مشرك لا دين له .

٦ - إن حـركة التبشـير وانتشارها في بلاد المسلمين تدخل إلى نفـوس المسلمين وقلوبهم باسم الإنسانية ومساعدة المريض بالعلاج والفقر بالمسـاعدة المالية والجهل بالتعلم ، ولكن هذه المؤسسات التبشيرية كانت فـي حقيقتها تقوم على الكذب على الرسول وعلى الصحابة وعلى القرآن وتـدس فـي تاريخ المسلمين لتشكك المسلمين في دينهم فيتركوا هذا الدين ويدخلوا في دين النصارى أو يعيشوا بلا دين وهذا هو المطلوب ..

ومما يؤسـف له أن نجـد هـناك تضامناً بين اليهود والنصارى وغـيرهم مـن الكفـار للطعـن في الإسلام وفي القرآن وفي السنة وفي الصـحابة وفـي الـتاريخ الإسلامي ، ويشنون حملات يشككون في هذا الديـن حـتى يـنفروا الناس منه ، ويشككوا أهله فيه ، إنهم ينزعون عن قوس واحدة .

إن الحمـلات الإعلامـية التـي تقـوم بها المنظمات الصهيونية والأمريكـية ضد الإسلام ، ووصفه بالإرهاب هي نفسها التي حذرنا منها القرآن الكريم .

الإعلام الغربي وحملة التشهير ضد الإسلام :

مـن الدروس المستفادة من أفعال اليهود في عصر النبوة أن أبناء أهـل الكـتاب ورثـوا ما كان لدى آبائهم من كذب وتضليل ضد الإسلام والمسـلمين حيـث يقوم الإعلام الغربي بحملة إعلامية ضد الإسلام حيث قامـت أمريكا بحملة إعلامية عالمية ضد العراق وكذبت على العالم وعلى المنظمات الدولية وادعت أن العراق يملك أسلحة دمار شامل واستخدمت

فـــي عملـــية تضـــليل العـــالم كافة الأدوات من كلمة مقروءة ومسموعة وتلـــيفزيون وســـينما وخلافـــه حتى استطاعت تجميع الدول الأوربية أو تحـــالف دولـــي أوربـــي لضـــرب دولة العراق الإسلامية في مارس سنة ٢٠٠٣م، ولـــم يكـــن الهدف من ضرب العراق البحث عن أسلحة الدمار الشامل كما ادعت أمريكا وإنما كان لهدم العراق وقتل العراقيين ، ولتحقيق سيادة اليهود على المنطقة .

التشكيك في نبوة الرسول :

من وسائل اليهود الخطيرة في الكيد للإسلام والمسلمين التشكيك في نبوة الرسول (ﷺ) ، والتشكيك في القرآن الكريم ، والطعن فيه لأن اليهود أهل هوى وأهل استكبار عن اتباع الحق ، فهم لا يتبعون إلا ما تمليه عليهم شهواتهم ، ليس لهم دين أو خلق يردعهم ويمنعهم عن فعل الباطل .

فقد وقف زيد بن اللصيت اليهودي حين ضلت ناقة رسول الله (ﷺ) يقول مشككاً في نبوة الرسول : " يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ، فأخبر الله تبارك وتعالى رسوله (ﷺ) بقول هذا الخبيث ودله عن طريق جبريل على ناقته ، فقال رسول الله (ﷺ) : " إن قائلاً قال : يزعم محمد يأتيه خبر السماء ، ولا يدري أين ناقته ؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها " ، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله (ﷺ) ، وكما وصف [١] .

ولم يقف الأمر باليهود عند هذا الحد بل أخذوا يشككون في القرآن الكريم بدعوى أنه ليس متسقاً مرة ، ومرة يزعمون أن الرسول تعلم هذا القرآن من إنس أو جن ، قال ابن إسحاق [٢]: أتى رسول الله (ﷺ) محمود ابن سيحان ، ونعمان بن أضاء وبحرى بن عمرو وعزيز بن أبي عزيز وسلام بن مشكم ، فقالوا : أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به لحق من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق د / محمد فهمي السرجاني ، ط المكتبة التوفيقية (٢ / ١١٠) .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٩ .

عند الله ، فإنا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة ؟ فقال لهم رسول الله (ﷺ) : أمـــا والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ولـــو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به ، فقالوا عند ذلك ، وهم جميع : فنحاص ، وعبد الله بن صوريا ، وابن صلوبا ، وكنانة ابن الربيع ابن أبي الحقيق ، وأشيع ، وكعب بن أسد ، وشمويل بن زيد ، وجبل بن سكينة : يا محمد ، أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟ قال : فقال لهم رســـول الله (ﷺ): أمـــا والله إنكـــم لتعلمون أنه من عند الله ، تجدون ذلك مكـــتوباً عـــندكم في التوراة ، فقالوا : يا محمد ، إن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدره منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعـــرفه وإلا جئـــناك بمـــثل ما تأتي به[١] ، فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [٢].

ومـــن الأســـئلة التي وجهوها لرسول الله(ﷺ)ويقصدون من ورائها إحـــراجه وتعجـــيزه وإغضـــابه وإثارته أنهم تهجموا على ذات الله تبارك وتعالى حيث سألوا رسول الله عمن خلقه .

قـــال ابن إسحاق : وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله(ﷺ)، فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلـــق الله ؟ قـــال : فغضب رسول الله (ﷺ) حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضباً لربه . قال : فجاءه جبريل (عليه السلام) فسكنه ، فقال : خَفِضْ عليـــك

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ٥٧٠) ط ٢ سنة ١٩٥٥ مصطفى الحلبي .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٨٨ .

يـــا محمد ، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

قال : فلما تلاها عليهم قالوا : فصف لنا يا محمد كيف خلقه ؟ كيف ذراعـــه ؟ كـــيف عضـــده فغضب رسول الله (ﷺ)أشد من غضبه الأول ، وســـاورهم ، فأتاه جبريل (عليه السلام) فقال له مثل ما قال له أول مرة ، وجاءه مـــن الله تعـــالى بجواب ما سألوه . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

قـــال ابـــن إســـحاق : وحدثني عتبة بن مسلم مولى بني تيم ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقـــول : " يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم حتى يقول قائلهم : هذا الله خلق الخلـــق ، فمـــن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا : " قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " ثم ليتفل الرجل عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

فقال ابن هشام : الصمد : الذي يصمد إليه ، ويفزع إليه [١] .

ومـــن مكـــايد اليهود التي اتخذوها ضد النبي (ﷺ) أنهم ذهبوا إليه ليـــنكروا نبوته ، قال ابن إسحاق [٢] : وقال سكين وعدي بن زيد : " يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى. فأنزل الله (عز وجل)

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق (٢ / ١٤٢) .

في ذلك قوله:﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا. وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

ودخلت على رسول الله (ﷺ) جماعة منهم ، فقال لهم : أما والله إنكم لتعلمون أني رسول من الله إليكم ، قالوا : ما نعلمه ، وما نشهد عليه . فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم:﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٢) .

ومن محاولات اليهود التي حاولوا فيها إحراج النبي (ﷺ) لإسكاته ، أو للتشكيك في نبوته أن نفراً من علماء اليهود اتفقوا على أن يسألوه عن أربع مسائل .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي عن شهر بن حوشب الأشعري أن نفراً من أحبار يهود جاءوا رسول الله (ﷺ) فقالوا : " يا محمد ، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن ، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك ، وآمنا بك ، قال : فقال لهم رسول الله (ﷺ) عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني ، قالوا : نعم ، قال : فاسألوا عما بدا لكم ، قالوا : فأخبرنا يشبه الولد أمه ، وإنما النطفة

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٦٣ – ١٦٥ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٦٦ .

من الرجل ؟ قال : فقال لهم رسول الله (ﷺ) : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسـرائيل ، هـل تعلمـون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه . قالوا : اللهم نعم ، قالوا : فأخبرنا كيف نومك ، فقال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هـل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به تنام عينه وقلبه يقظان ، فقالوا : اللهم نعم ، قال : فكذلك نومي ، تنام عيني وقلبي يقظان ، قالوا : فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه . قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسـرائيل ، هـل تعلمـون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومهـا ، وأنه اشتكى شكوى ، فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحب الطعـام والشـراب إليه شكراً لله ، فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، قـالوا : اللهم نعم ، قالوا : فأخبرنا عن الروح . قال : أنشدكم بالله وبأيامه عـند بني إسرائيل ، هل تعلمونه جبريل ، وهو الذي يأتيني . قالوا : اللهم نعم ولكنه يا محمد لنا عدو ، وهو ملك ، إنما يأتي بالشدة وبسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك [١] ، قال : فأنزل الله(ﷻ)فيهم :

﴿ قُـلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُـدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.. إلـى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْـدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١٢٥) .

وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ... ﴾ (١) .

التظاهر بالإسلام :

لقد حاول بعض اليهود أن يتظاهروا بالإسلام ويبكوا على يهوديتهم وكفرهم ، يتظاهرون بالصلاح ويضمرون الشر والفساد والإفساد وكان من هؤلاء " ممن تظاهر بالإسلام من أحبار يهود بني قينقاع سعد بن حنيف ، وزيـد بـن اللصـيت ، ونعمان بن أوفى ، وعثمان بن أوفى ، ورافع بن حـريملة ورفاعـة بـن زيد بن التابوت ، وسلسلة بن برهام ، وكنانة بن صورباء " .

وقد كان لهؤلاء أحداث ودسائس ومكائد كثيرة لم يظفروا بما أرادوا مـنها : يقـول ابـن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري : " كان رجـال من اليهود إذا لقوا الصحابة قالوا : إنا على دينكم ، وإذا خلوا إلى شياطينهم وهم أصحابهم قالوا إنا معكم " (٢) .

وهذه وسيلة من أخطر الوسائل التي جابهت المسلمين على طوال تاريخهم فقـد دبـر الـنفاق اليهودي بالاشتراك مع الحاقدين من غيرهم مقتل أمير المؤمنيـن عمر بن الخطاب ، والنفاق اليهودي هو الذي دبر فتنة الخروج على الخليفة الثالث عثمان بن عفان وانتهت بقتله على يد الملعون مالك بن الحارث النخاعي المعروف بالأشطر ، والنفاق اليهودي هو الذي قسم الأمة

---

(١) سورة البقرة الآيات ٩٧ – ١٠٢ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٩ / ٢٠٧) .

إلى فرق ومذاهب على يد اليهودي المنافق ابن السوداء عبد الله بن سبأ ، والنفاق اليهودي هو الذي أعد مكيدة في الكوفة لتخريب الإسلام قادها اليهودي المنافق ميمون بن ديصان القداح سنة ٢٧٦هـ الذي كان يعلن الإسلام ويخفي اليهودية نفاقاً ونصب للمسلمين الحبائل وبغى بهم الغوائل وتظاهر بقبول نصوص الشريعة الإسلامية من قرآن وسنة وبقبول فروض الإسلام وواجباته ، ولكنه أخذ يجعل لكل آية تفسيراً ولكل حديث نبوي تأويلاً من اختراعاته ، ويوسوس لأتباعه بأن كل فرض من فروض الإسلام وواجب من واجباته وأدب من آدابه إنما هو رمز عن أمر آخر غير الذي يفهمه القشوريون الذين يأخذون بظواهر الألفاظ والأعمال .

وصار يزعم للمنخدعين به أن هذه التفسيرات والتأويلات والمعاني المرموز إليها هي المعاني الباطنية لهذه النصوص ولهذه الفروض والواجبات والآداب ، ولكن علماء الظاهر يتعلقون بالقشور ويتركون اللب ، وحينما ينتقل إلى التفسيرات والتأويلات والمعاني الباطنة يتلاعب فيها كما يشاء له هوى التضليل في العقيدة وفي الشريعة وفي جميع المفاهيم الإسلامية العظيمة .

واستمرت هذه المكيدة اليهودية في أطوار متنوعة الأشكال والظواهر ، وجذبت إليها الأشرار والفساق ، وتعددت فرقها وأسماؤها ، وأخذوا ينشرون الفساد في الأرض ، واستباحوا نكاح الأخوات والبنات ، وانسلخوا من جميع التعاليم الإسلامية وتعاونوا مع الجيوش الغازية لبلاد المسلمين ، مظهرين الانتساب إلى الإسلام ومبطنين العداء الشديد لكل شيء يتصل به أو بالمسلمين .

وقد تتبع محققو الأنساب أن ميمون القداح كان يهودياً متعصباً لليهودية ، وهو من ولد الشلعلع من يهود ، وكان حبراً من أحبارهم وعالماً بالفلسفة والتنجيم ، ومطلعاً على أصول المذاهب والأديان .

ويذكر المحققون-أيضاً-أن الفرق الباطنية ترجع إليه وأنهم ليسوا من أئمة أهل البيت ، ولذلك كتب جلة من العلماء شهادة أثبتوا فيها أن ما ادعاه هؤلاء من الانتساب إلى ولد علي بن أبي طالب زور باطل ، وأنهم زنادقة ملحدون ، وللإسلام جاحدون ، أباحوا الفروج ، وأحلوا الخمور ، وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية ، وقد كتبت هذه الشهادات في محضر وقع عليه العلماء المشار إليهم في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وأربعمائة للهجرة ، ومن العلماء الذين أثبتوا توقيعاتهم على محضر هذه الشهادة : الشريف الرضي ، والشريف المرتضى ، وأبو حامد الإسفراييني ، وأبو عبد الله الصيمري ، وأبو الحسين القدوري ، وأبو جعفر النسفي ، وغيرهم من كبار الأئمة .

ولذلك كان من ظهر منهم بعد باسم الفاطميين يستعملون اليهود في الوزارات والرياسات ، ويفوضون إليهم تدبير أمر السياسة ، ويحكمونهم في دماء المسلمين وأموالهم ، وأما من لم يظهر منهم فقد كانوا يتعاونون مع اليهود في كل وقت ، ولا يمسونهم بأذى ، بل كانوا يصبون كل بلائهم على المسلمين ، ويترصدون علماءهم وصلحاءهم ويغيرون على حجاجهم [١] .

---

[١] راجع : مكايد يهودية عبر التاريخ . عبد الرحمن حسن حبنكة ص ١٥٨ – ١٦٢ بتصرف ط ٦ ، دار القلم .

واســـتمر الكـــيد اليهودي يتسربل بالنفاق ويكيد للمسلمين من خلال الإســـرائيليات فـــي التفســـير ، والموضوعات في الحديث وزحزحة القادة المخلصـــين عن أماكنهم وما فعله مصطفى كمال أتاتورك اليهودي لضرب وحدة المسلمين وتفريق شملهم وإنزال السلطان عبد الحميد من على كرسي العرش لتسهيل إقامة الدولة اليهودية في أرض العرب والمسلمين عنا ببعيد ولهذا حذرنا ربنا في القرآن الكريم من النفاق اليهودي في آيات كثيرة :

١ – قـــال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُـــولَ حَـــقٌّ وَجَـــاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَـــزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَـــيْهِمْ لَعْـــنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ... ﴾ (١) .

٢ – قـــال سبحانه وتعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله مـــن آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يا أيهـــا الذيـــن آمـــنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ..﴾ (٢) .

٣ – قـــال ﷻ : ﴿ يَـــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٨٦ – ٨٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٩٨ – ١٠٠ .

أَكْـــبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِــنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِــبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.. ﴾ [١] .

وهــذه الآيــات تتضــمن صورة قوية وبليغة لعداء اليهود الشديد للمســلمين لذلك حذرت المسلمين من موالاتهم واختلاطهم بهم ، واطلاعهم على أمورهم وأسرارهم .

---

[١] سورة آل عمران الآية : ١١٨ – ١٢٠ .

المراجـع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : بقية المراجع .

١ – إثبات العقائد الإسلامية بين النصيين والعقليين: الدكتور/ محمد عبد الرحمن بيصار . بحث من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية.

٢ – إحـياء علـوم الديـن للإمام محمد بن محمد الغزالي ، تقديم الدكتور / بدوي طبانة ، ط دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي

٣ – الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد للدكتور/ صالح بن فوزان عبد الله الفوزان ، طبعة دار العاصمة ، ط ٣

٤ – أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، سلسلة الأمة رقم ٢٦ ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ د / أحمد محمد كنعان .

٥ – أساس البلاغة ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ، جار الله الزمخشري .

٦ – الإسـرائيليات والموضوعات في كتب التفسير . طبعة مجمع البحوث الإسلامية ، د / محمد بن محمد أبو شهبة .

٧ – الإسلام وحركة التاريخ : رؤية جديدة في فلسفة تاريخ الإسلام الطبعة الأولى ، دار الكتاب اللبناني بيروت ، أنور الجندي .

٨ – الإسـلام وبـناء المجـتمع الفاضـل ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ، د / يوسف عبد الهادي الشال .

٩ – الإصـــابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني وبحاشيته الاسـتيعاب فـي أسماء الأصحاب لابن عبد البر القرطبي المالكي ، دار الكتاب العربي بيروت .

١٠ – إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، مكتبة السنة المحمدية .

١١ – تاريخ الجدل : الإمام محمد أبو زهرة .

١٢ – التحريف المعاصر في الدين : تسلل في الأنفاق بعد السقوط في الأعماق ، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني ، ط ١ سنة ١٩٩٧ ، دار القلم ، دمشق .

١٣ – التفسير والمفسرون : د / محمد حسين الذهبي .

١٤ – تفسـير القـرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير ، طبعة دار الفكر العربي .

١٥ – الترغيب والترهيب من الحديث الشريف : للإمام ذكي الدين عبد العظيم المنذري ، طبعة وزارة الأوقاف المصرية ١٩٧٦م .

١٦ – تيسـير مصطلح الحديث : د / محمد محمود أحمد هاشم ، بدون تاريخ .

١٧ – جدل القرآن الكريم لأهل الكتاب ، دراسة تحليلية ، د /خليفة حسن العسال ، بحث بحولية كلية الشريعة ، قطر .

١٨ – جواهر الألفاظ لأبي فرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة

١٩ – جـامع البيان عن تأويل آي القرآن : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، طبعة دار المعارف وطبعة مصطفى الحلبي .

٢٠ – جـامع العلـوم والحكم لابن رجب الحنبلي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، الطبعة الثالثة ١٩٩١م .

٢١ – الجـامع لأحكـام القـرآن : لأبـي عبد الله محمد بن أحمد الأنصـاري القرطبي ، طبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ومؤسسة مناهل العرفان مكتبة الغزالي .

٢٢ – الخصـائص العامة للإسلام : د / يوسف القرضاوي ، ط ١ سنة ١٩٧٧ طبعة دار غريب للطباعة ، مكتبة وهبة .

٢٣ – خصائص التصور الإسلامي ومقوماته : السيد قطب ، طبعة دار الشروق .

٢٤ – خاتم النبيين : الإمام محمد أبو زهرة ، طبع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي في دولة قطر .

٢٥ – الدعاة والتخطيط . كتاب الأمة .

٢٦ – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : د/ مصطفى السباعي طبعة ١٩٧٨ م .

٢٧ – سنن الترمذي : أبو عيسى الترمذي ، استنبول ، تركيا ١٩٨١

٢٨ – ســنن أبي داود : أبو داود السجستاني ، مراجعة وضبط : محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة الرياض والمكتبة العصرية بيروت .

٢٩ – الســيرة النبوية لابن هشام : أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافــري ، تحقــيق د / محمــد فهمي السرجاني ، طبعة الدار التوفيقية بالأزهر .

٣٠ – ســبل الهدي والرشاد في سير خير العباد : للإمام محمد بن يوسف الصالحي ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٣١ – شــرح الطحاويــة في العقيدة السلفية : للعلامة صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، إصــدار وزارة الشــئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الرياض ١٤١٨ هـ .

٣٢ – الشــريعة للآجري ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

٣٣ – العبادة في الإسلام : د / يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

٣٤ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري : للإمام الحافظ أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ، مكتبة الغزالي ، مؤسسة مناهل العرفان .

٣٥ – فقه الأولويات : دراسة في الضوابط ، تأليف : محمد الوكيل الطبعة الأولى ١٩٩٧م ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية .

٣٦ – في فقه التدين فهماً وتنزيلاً : د / عبد المجيد النجار ، سلسلة كـتاب الأمـة رقم ٢٠ ، تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، قطر .

٣٧ – في ظلال القرآن الكريم : سيد قطب ، طبعة دار الشروق ، الطبعة الحادية عشرة .

٣٨ – قضية الحرية وقضايا أخرى : د / عبد الغني عبود ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٧٩م .

٣٩ – قـيم حضـارية : تأليف : توفيق محمد السبع ، منشورات مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٣م .

٤٠ – قضـايا العلوم الإنسانية ، إشكالية المنهج ، تأليف مجموعة من العلماء .

٤١ – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة ، الدكتور المهندس / محمد شحرور ، الطبعة الثانية ١٩٩٠ ، مطبعة الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع دمشق .

٤٢ – كـيف نتعامل مع القرآن العظيم : د / يوسف القرضاوي ، طبعة جامعة قطر ، مركز بحوث السنة والسيرة .

٤٣ – الكـامل في التاريخ لابن الأثير ، أبي الحسن علي بن محمد ابن محمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ .

٤٤ – لسـان العرب لابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم ، طبعة دار صادر بيروت .

٤٥ – مجموع الفتاوي للإمام ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن القاسمي وابنه محمد ، مطبوعات إدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد السعودية .

٤٦ – المدخل إلى علم الدعوة : دراسة منهجية شاملة لتاريخ الدعوة وأصولها ومناهجها وأساليبها في ضوء النقل والعقل ، د / محمد أبو الفتوح البيانوني ، الطبعة الرابعة ١٩٩٧ ، مطبوعات إدارة الشئون الإسلامية ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، قطر .

٤٧ – المدخل لدراسة السنة النبوية للدكتور يوسف القرضاوي ، الطبعة الثالثة ١٩٩٢ مكتبة وهبة القاهرة .

٤٨ – مقاصد المكلفين : د / عمر الأشقر ، مكتبة الفلاح ، الكويت الطبعة الأولى ١٤٠١هـ .

٤٩ – مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام : د / يوسف القرضاوي مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى .

٥٠ – المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ، ضوابط ومحاذير في الفهم والتفسير: د / يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ٢٠٠١م ، مطبعة المدني ، مصر .

٥١ – معالم التنزيل للإمام البغوي على هامش تفسير الخازن ، الطبعة التجارية .

٥٢ – منهج الرسل في دعوة أهل الكتاب ، د / محمد بن سيدي بن الحبيب الشنقيطي ، طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية .

٥٣ – مناهج البحث العلمي في العلوم والثقافة الإسلامية ، بحث الدكتور/ عبد المنعم صبحي أبو شعيشع ، بحولية كلية أصول الدين والدعوة بطنطا .

٥٤ – مفـــردات القرآن الكريم : الراغب الأصفهاني ، تحقيق نديم مرعشلي ، دار الفكر ، بيروت .

٥٥ – الموطأ للإمام مالك بن أنس ، تصحيح وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة دار إحياء التراث العربي .

٥٦ – مـــنهج التربية الإسلامية : محمد قطب ، طبعة دار الشروق الطبعة السابعة ١٩٨٣ .

٥٧ – منهج الدعوة إلى الله تعالى : د / حسين مجد خطاب ، بدون تاريخ وتحديد مكان الطباعة .

٥٨ – مـــنهج الدعـــوة : د / عبد المنعم أبو شعيشع ، بدون تاريخ وتحديد مكان الطباعة .

٥٩ – المعجـــم الوســـيط ، مجمـــع اللغة العربية ، طبعة المكتبة الإسلامية استنبول ، تركيا ، الطبعة الإسلامية .

٦٠ – من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق: عبد الله الزبير عبد الرحمن ، كتاب الأمة ، سلسلة دورية تصدرها وزارة الأوقاف القطرية ، العدد ٥٦ .

٦١ – مناهج البحث والتفكير العلمي : د / محمد عبد الله الشرقاوي

٦٢ – مختـــار الصحاح : محمد بن أبي بكر الرازي ، طبعة دار التراث العربي .

٦٣ – المعجم الوجيز : مجمع اللغة العربية ، جمهورية مصر العربية ، طبعة ٢٠٠١م .

٦٤ – مكـــايد يهوديـــة عـــبر التاريخ : عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني ، الطبعة السادسة ، طبعة دار القلم ، دمشق ١٩٩٢م .

٦٥ – هدي الساري في مقدمة فتح الباري للإمام ابن حجر العسقلاني مكتبة الغزالي ، مؤسسة مناهل العرفان .

٦٦ – هـــذا الديـــن بين جهل أبنائه وكيد أعدائه : د / محمد السيد الوكيل ، الطبعة الرابعة ١٩٩١م ، دار الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة

٦٧ – وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: نور الدين علي بن أحمد الســـمهودي ، تحقـــيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، طبعة إحياء دار التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

٦٨ – الوسطية في القرآن الكريم : د / علي محمد الصلابي المصراطي ، طبعة دار النفائس ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٤/٦٢٩٩